عـــذراء
كـفـرالشـيـخ

تصميم الغلاف : جوده خليفة

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

د . نظمي لوقا

عذراء كفر الشيخ

دار المعارف

إلى السائرين فى الظلمة ،
ومن يلوح لهم – من أنفسهم –
فجر جديد . . .
وأيضاً إلى ل . . .
محاولة فهم . . .

نظمى

كلنا رقيق الأرض
مقدمة جادة إلى قارئ جاد

« رقيق الأرض »

هذه هى التسمية العامة التى ينطوى تحتها كل إنتاجى الأدبى – نثراً وشعراً – منذ رسمت معالمه ومراميه فى سنة ١٩٣٦ .

فأما الأرض فهى هذا الكوكب .

وأما الرقيق فهم أنا وأنت – أيها القارئ – وسائر من خلق الله ؛ فليست الأرض هى المزرعة . بل هى هذا العالم الكبير بظروفه وأوضاعه ، وليس الرقيق هم زراعها ، بل هذا الجمع المجتمع مقيدين بهذه الظروف ، مستبعدين للأوضاع والمواضعات التى تنجم عن حياة الاجتماع .

وكل امرئ منهم رهين بالصورة التى يتراءى بها العالم الخارجى فى مرآة نفسه البعيدة الأغوار ، والتى ينظر إليها العالم الخارجى وكأنها سطح مستو لا عمق فيه ولا أسرار ولا ضرورة فيه ولا اضطرار ؛ وإنما الأمر كله نسخ لا تنطوى إلا على موضوعات تدخل فى نطاق علم المنطق أو علم الأحياء أو علم الاقتصاد . . . !

فنحن بهذا سجناء فى رحبة الأرض ، سجناء فى طوايا نفوسنا ، بل

نحن شر من السجناء ، لأننا لا نعرف أغوار أنفسنا وأسرارها ، ونؤمن مع هذا بصواب نظرة العالم الخارجي ومقاييسه ، فمقاييسنا وصيغ عقلنا مكتسبة من حياة الاجتماع التي هي سجن آخر رهيب لا يفهمنا ، ونتقبل نحن - مع هذا - فهمه لنا غالباً في إيمان وتسليم .

نحن لا نفهم أنفسنا ، ولكننا نخضع مع هذا لها ، لأنها « نحن » قبل كل اعتبار . ثم بعد هذا يديننا العالم بمقاييسه العمياء ، بل ندين نحن أنفسنا بمقاييس ذلك العالم في كثير من الأحيان !

ألسنا إذن رقيقاً في الأرض ؟ إذ نخضع دون فهم ولا اختيار لطوايا نفوسنا ، ولا نملك من ذلك فكاكاً . . . كالمدلجين في الظلمة : عليهم أن يخطوا وفق حدود رسمها من يزعمون لأنفسهم بصراً ، وإنما هم تواضعوا على تخطيط لمعالم الأرض ، دون نظر لطبائع السالكين . . . !

هذه هي الأرض ، وهؤلاء هم رقيقها المساكين .

فإذا تخطى واحد منهم الحدود المرسومة فتلك هي الجريمة !

جريمة هي ، ولكن في طوايا النفس لا جريمة ، بل تيار مطرد ينتهي إلى نقطة لابد منها بحكم اندفاع التيار واتجاهه . أما في نظر « القوانين » فهذا التطور الطبيعي المحتوم جريمة تنصب لها الموازين . وأي موازين تلك التي لا تفرق بين الجواهر وأحجار الطواحين ؟

ولست عن « القوانين » التشريعية وحدها أتحدث ، بل عن كل ما هو عرف عام ومقاييس اجتماعية خلقية بوجه الإجمال ؛ لأنها تنظر إلى « أفعال » الناس في ضوء ميت ، هو ضوء العقل الخارجي ، وصيغ المنطق

والموروثات .

أما العالم الحقيقى للإنسان فهو النفس المطوية على أسرارها فى عالمها المكون الذى تكتنفه الظلمة والحيوية .

وهذه هى مأساة رقيق الأرض المساكين على تعدد أنواع رقهم وتباين درجاته .

نحن عبيد نفوسنا التى نجهل أو نتجاهل حقيقتها الحية الخاصة بها ، وإن كنا نعانيها ونزاولها . وعبيد محيطنا الكونى والاجتماعى بصيغة الجامدة العامة بلا خصوصية أو تمييز .

هذه مأساتنا كلنا بلا استثناء ! على تفاوت فى الغفلة ، أو الاستكانة ، أو الانطلاق !

نظمى لوقا
من رقيق الأرض

بين يدى هذه الرواية :
أدب الدعوة وأدب التبصير . .

لم يكن بودى أن أقدم هذه الرواية إلا بما تقدّم به نفسها ولا زيادة ، ولكنى رأيت الأمر ربما لا يخلو من « قلوب عليها أغلاقها » . . . فآثرت – أخذاً بالأحوط – ألا يكون أدبى موضع لبس .

* * *

الأدب أدبان : أدب دعوة وأدب تبصير :

أما أدب الدعوة ، فهو – فى يقينى – متسم بالفجاجة والسطحية والسخف ؛ لأنه يهتم بالصورة الظاهرية : للسلوك البشرى ، ويدعو إلى تغييرها غافلاً عن حقيقة ضخمة : أن السلوك البشرى ثمرة نهائية لسياق طبيعى أشبه بالشجرة ذات الجذر والجذع والأغصان . وعبثاً ننادى بتغيير الثمرة من غير أن نوجه همنا إلى ذلك السياق الطبيعى كله . . .

أما أدب التبصير فيقول بالتجسيد ما يقوله العلم بالتجريد : إن أى مصادرة أو إهدار أو التواء لمرحلة من مراحل النمو الطبيعية – لا تودى بإلغاء هذه المرحلة ، بل إلى كونها طاقة حبيساً ، تتلمس أقرب وأيسر فرصة للتعبير عن نفسها فى مرحلة تالية من العمر ، ولا مناص من هذا . . . !

فإن شئنا سلوكاً سوياً حقاً فلننشد له الجذور الصحيحة ، وسياق النمو السوى فى شتى مراحله . أما إن اضطرب هذا السياق فالنتيجة الحتمية ظهور آثار ذلك الاضطراب فيما بعد : إما مرضاً نفسياً ، أو ارتداداً إلى المرحلة المهدرة من العمر ، وكلاهما سلوك غير مرغوب فيه ، ولكنه نتيجة طبيعية تماماً لأسبابه التى غفلنا عنها .

* * *

وإن كان لابد من دعوة نلصقها بأدب التبصير فهى الدعوة إلى تصحيح الأصول والسياق إذا أردنا حقاً تحاشى أنماط السلوك التى لا نرضى عنها .

وكما أنه لا يجوز القول بأن الطب يدعو إلى الإصابة بالأمراض ؛ لأنه يبين أسبابها الطبيعية – كذلك أدب التبصير لا يدعو للانحراف أو الارتداد ، بل هو يبصرنا بأسبابه كى نتحاشاه . . .

ولنكن على يقين وهدى من أمرنا : أن الدعوة – وحدها – لا تجدى فى صنع السلوك السوى ؛ فهذا نظر سطحى فج إلى أمور البشر وأخلاقهم ؛ وإنما الصحيح حقاً هو فهم ارتباط الأفعال بأسبابها ارتباطاً لا فكاك منه .

ثم إن الدعوة ليست من شأن الفن الصحيح ؛ فأدب الدعوة – فى رأينا – أدب هابط فنياً .

وكان فراغى من هذه الرواية فى يناير سنة ١٩٤٨ . وطويتها مع كثير من أعمالى الأدبية الأخرى التى قصدت بها – فى فترة الشباب – أن أصور

قطاعات من آفانين الرق البشرى .

وقد آثرت – وأنا أنشرها بعد سبع وعشرين سنة – أن أدفع بها إلى الناس كما هى ، وفى مرجوى أن يراها القارئ فى إطارها الصحيح .

وفى مرجوى أيضاً أن يدرك القارئ الحصيف أن العذرية هنا ليست عذرية الجسد – فمالى بهذا اهتمام – بل عذرية القلب . والعذرية بهذا المعنى – كما لا يخفى – تنصرف إلى الرجال والنساء على السواء . . .

فقصارای بهذه الرواية أن تكون محاولة فهم للنفس البشرية ، وشمعة صغيرة فى طريقها الحافل بالظلمات .

وسلام على الصادقين . . .

دكتور نظمى لوقا

أستاذ الفلسفة بجامعة عين شمس

ديب الحياة

درجت «حورية» فى ربوع هذه الدنيا منذ ولدت ، صورة متكاملة للحيوان الجميل الذى تضج فيه الحيوية والصحة والعنفوان ، الحيوان الجميل الذى لم يستأنسه البشر ، ولم يعرف فى حياته كوابح اللجم ، فهو منطلق دائماً على سجيته فى غير تردد أو توقف ، أو مراجعة ، إنه يعيش وكفى ! فى جرأة وبراءة واطمئنان . . .

كم عمر هذا الحيوان ؟

ليس المعول فى أعمار الحيوان على الأيام والسنوات ، فالحيوان لا يستطلع عمره فى تقويم الشمس أو القمر أو النجوم ، بل يحس الحيوان بعمره عن طريق أطوار حياته . وأطوار حياته لا يعرفها بعقله . هيهات ! بل يحسها إحساساً فى خلجات لحمه ونبضات دمه واهتزازات أعصابه .

لنقل : إنها كانت بحسابنا نحن فى نحو الثالثة عشرة . فأعتبر أنا وأنت أنها فى سن المراهقة . . . أما هى فإحساسها بهذا الطور تتبينه من أغوار جسدها فى ذلك الدبيب الزاحف الظافر من الحيوية الفائضة والرغبات الغامضة والدوامات الفائرة المنبعثة من أعماق مجهولة ، والمؤدية إلى أعماق أشد غموضاً وهولا . . .

ولكن الحيوان الصغير الجميل الفوار بالحياة فى عروقه ليس وحده . ولا يستطيع أن يكون وحده . فلا بد من تأثيرات ومن سدود ومن قيود . ومن السدود والقيود تنبت دائماً علامات الاستفهام ، وحيثما نجد علامات الاستفهام نجد الحيرة والعجب . ومع الحيرة والعجب يولد التفكير .

ومع الثالثة عشرة بدأت «حورية» تنظر حولها ، وتنظر فى نفسها ، وتفكر .

* * *

كان اعتقادها منذ وعت نفسها أن الزواج هو النتيجة الطبيعية الجميلة السعيدة لمرحلة البلوغ ، كانت تعرف هذا تماماً ، ولكن لم يحدث بتاتاً أنها ناقشته أو حاولت معرفة أسبابه ، كما أنها لم تحاول بتاتاً أن تناقش كل مظاهر حياتها ووظائفها الطبيعية . كالتنفس والطعام والنوم والنمو .

الفتاة . . فى اعتقادها الفطرى تكبر فتلبس كعباً عالياً وثياباً جميلة ، وتضع على وجهها المساحيق وعلى شفتيها الصباغ الأحمر ، وينهد ثدياها . فيقول الجميع :

– ما شاء الله ! قطوطة كبرت . . . صارت عروساً يتمناها الشبان !

ويأتى ابن الحلال الموعود ، فتدوى الزغاريد ، وتسود الضجة الصاخبة ، وتطل الفرحة من العيون جميعاً . فالزواج ولا شك هو فرحة العمر كله ، وأسعد حادث يمكن أن يقع فى حياة أى فتاة .

ولو سألها أى أحد منذ طفولتها عن مجرى حياتها كما تتصورها أو تتمناها – ما – ترددت «حورية» أن تقول بإيمان لا يحتاج إلى تفكير : «أكبر . وأتزوج . وأنجب أطفالاً» . . ولا تتصور بعد ذلك شيئاً أو وراء ذلك شيئاً ، فالزواج والنسل هما القمة التى لا تعلوها قمة حتى فى دنيا الوهم والخيال والأمانى . . .

حياة كل تاريخها أنها نسخة لا تزيد ولا تنقص من أطوار التاريخ الطبيعى للكائن الحى ، كما يعرفها أصحاب علم النبات وعلم الحيوان وعلم وظائف الأعضاء .

بديهية تعلمتها من وحى الفطرة ، وأكدها لها كل الذى شاهدته حولها فى بيئة المنزل والجيران وأحاديث الكبار .

أختها «هدية» تحدثوا بجمالها الفتان فى كل مجال ، فكان طبيعياً جداً أن تتزوج قبل الأوان . وأن يتحايلوا بشهادة من الطبيب على عقبة السن القانونية . وكانت «هدية» لا تكتم ضيقها بما فى ذلك القانون من تحكم سمج وفضول .

وعندما بكت «حورية» لما رأت أختها خارجة من البيت ، أخذتها «دادة» الجارية إلى المطبخ وضمتها إليها ضماً قوياً . وراحت بعينيها الواسعتين المتوهجتين تسرى عنها بحديث أذهلها عن البكاء والدموع ،

فراحت تجرع ذلك الحديث بعينيها وأذنيها وجوارحها كلها . كيف أنها هى أيضاً عندما تنضج ثمار بستانها ستمضى فى نفس الطريق لتؤتى ثمارها فى بيت آخر ؟ فهكذا خلق الله الفتيات . لا تطيب حياتهن ولا يعرفن السعادة حين يستوى عودهن إلا إذا أتحن جناهن للزوج المقسوم . فلا المهلبية ولا المشمش الحموى الذى لا تحب فى الدنيا شيئاً مثله يساوى شيئاً بجانب حلاوة الزواج . فهو بالاختصار خلاصة لذات الدنيا . ولهذا سموه « دخول الدنيا ! » .

وشردت نظرات عينيها السوداوين وظلت برهة طويلة لا ترمش بأهدابها التى كانت مشهورة دائماً بالغزارة والطول والجمال ، لأنها كانت قد طوحت بخيالها إلى ذلك العالم المسحور . فكأنها (سندريلا) تحلم بقصر أميرها الجميل .

وكانت « حورية » يوم تزوجت أختها لم تبلغ العاشرة . فتاة غضة البدن . يشبهونها بالبطة . لولا أنها ناصعة البياض . ولها شعر فاحم كالليل ، منهدل كالموج ، غزير طويل ، وعينان دعجاوان فيهما حور نادر . . .

ومن ذلك اليوم اقترن فى نفسها الزواج بالحياة وبالفرح وبالنعيم المجهول . النعيم الذى قد تجهله اليوم ، ولكنها لابد أن تعرفه يوماً . حين يأتى الأوان .

* * *

وفى يوم من أيام هذه السنة ، وقد احتفلت بعيد ميلادها الثالث

عشر قبل أيام وجدت فى نفسها ذلك الاضطراب الذى يصحبه وجوم ونوبات من الرغبة فى البكاء . ثم موجات من المرح والضحة ، ثم نظرات الريبة التى لا حقتها بها جدتها لأبيها ، هذه التركية العجوز التى تسيطر على كل شىء من أريكتها الإستامبولى . ثم همست الجدة لأمها شيئاً ، واحمر وجه الأم وردت على حماتها همساً .

وبعد أسبوع ذعرت الصغيرة «حورية» لظاهرة لم تتوقعها فى نفسها بتاتاً ، ولكنها أدركت من تلك الابتسامة الغامضة التى ارتسمت على وجه أمها أنه لا محل للخوف . بل إن ذلك كان متوقعاً حدوثه لها بين وقت وآخر .

وعرفت الصغيرة «حورية» أنها لم تعد صغيرة . . .

والتقت هى وبشائر فجر أنوثتها الأولى بوجه جديد ملأها استغراباً ثم لم يلبث أن ملأها فخراً : التقت هى ووجه الغيرة . الغيرة الأنثوية . فقد كان يبدو فى حركات أمها الضيق ممزوجاً بعناية تبذلها على مضض . فى حين أن الجدة أدنتها منها . وخاطبتها بخشونة ظاهرية لم يفتها أن تحس تحتها بفخر ممزوج بسرور معربد يطويه الوقار فيأبى إلا أن يطل من العينين ونبرة الصوت .

– انتهى أوان اللعب مع الصبيان . لوكنت ابنتى فى زمنى ما رأيت بعد اليوم شكل الشارع ولا لون السماء إلا من وراء المشربية أو اليشمك . زمن خرع . خسيس . خاسر !

وبعدها تلذذت بالإعراض والفتور اللذين لمستهما جيداً فى حركات

أمها بضعة أيام . وتعلمت أن تفاخر وتكايد بهذا الذى توجتها به الطبيعة فنحتها شهادة التخرج من مدرسة الطفولة ، قبل الكثيرات من الأتراب .

وإلى هذا الزهو والاعتزاز بأنوثتها المزهرة قبل الأوان تدين «حورية» بظهرها المستقيم وكتفها الذى لا يعرف الانحناء إلى الأمام ، فقد جنبها ذلك الافتخار ما تقدم عليه كثرة المراهقات من ثنى الصدر إلى الأمام . خجلا مما فوجئن ببروزه بين ليلة ونهار . أما هى فكانت تمشى عالية الصدر مرفوعة الرأس . تتحدى ، وفى فمها فص اللبان تتشدق به فى خيلاء ، وهى ذاهبة إلى مدرستها الثانوية فى حى العباسية ، حيث كانت طالبة فى السنة الأولى . . .

وكان هناك سبب آخر لخيلائها : إنها خرجت من طبقة «المفعوصات» ودخلت فى الطبقة الأخرى : الطبقة التى تضم بلا فروق ، ولا حواجز ، جميع الأبلوات ، والتلميذات الناهدات . طبقة واحدة ، الجميع فيها متساويات ، ولا فضل فيها لواحدة على أخرى إلا بالحلاوة ، والفتنة ، وسطوة الشباب . . .

ولكن هل كانت «حورية» تعرف هذا كله ؟ . . .

تعرفه بعقلها ؟ كلا . . . ! بيد أنها كانت تحسه بفطرتها المتيقظة لدبيب الحياة الناشط الظافر فى صدرها وعروقها ، ومعاطفها التى طرأت عليها الاستدارة ، والحرارة ، والتوثب !

تحسه بفطرتها باعثاً وطاقة دافقة ، أما ما وراء هذا كله فغموض ،

ولكنه الغموض الذى هو قوام كل سحر ، ومعدن كل حلم ، وفتنة كل أمل .

ماذا تريد ؟ ومن تريد ؟ ولماذا ؟ وكيف ؟

أسئلة لم تطرحها كلها على نفسها بعد ، ولم تتضح صورها وموضوعاتها فى نفسها بعد . ولكنها واعية بالقوة الكامنة فيها . تلك القوة التى تدفعها منذ اليوم فى سيطرة قاهرة إلى شاطئ مجهول ، يقوم فوقه عالمها المسحور ، حيث فارسها الجميل الذى تهتز له كل جارحة فيها ، من غير أن تعرف له كنهاً أو شكلاً . . . وحسبها أن تحس سلطانه عليها ، وحاجة تكوينها الجديد إلى رونقه وبأسه وشبابه . . .

وإنها لمشوقة إلى استيضاح مزيد من هذا الغموض الخافى عليها ما وجدت إلى ذلك سبيلاً : بالحس المتوفز ، والعين الفاحصة ، والأذن المرهفة ، والقلب المتلهف ، والحيرة الظامئة . . .

الهزة الأولى

– لا لعب بعد اليوم مع الصبيان . . .

هكذا فاجأتها فى الصيف الماضى جدتها لأبيها ذات صباح .

ولم يسمحوا لها بالنزول كثيراً إلى الشارع . ولكن لم يزل فى البيت «صبيان» كثيرون يأتون للزيارة ؛ لأنهم من ذوى القربى . . . صبيان كبروا كما كبرت ، ومعظمهم يكبرونها بثلاث سنوات أو خمس . وهى على عادتها فى «الشقاوة» معهم كلما حضروا : تجذب شعرهم ، وتخرج لهم لسانها ، وعيناها تتوهجان بالمرح والسرور والحيوية :

وتحمر عينا الجدة وتوبخها وتوبخهم . ويدركون هم أكثر مما تدرك «حورية» أن هذا العبث صار لا يليق . . . فيأخذونها بالجد ، ويتحاشونها . ولكنها تصر على التحرش بهم من وراء ظهر الجدة كلما

وجدت سبيلاً إلى ذلك . . .

وفى ذات يوم جاء «مدحت» ابن بنت عم أمها للزيارة ورأته ينظر إليها من تحت جفنيه ، ولا يلاعبها كما كان يفعل فيما مضى . وأدركت فيه ارتباكاً كلما كلمته . . . فاستساغت هذه اللعبة الجديدة . . . وغافلته وهو يغسل يديه وخطفت المشط الذى فى جيب سترته الخارجى ، فلم يجر وراءها ، بل نظر إليها واحمر وجهه ، فوقفت بعيداً عنه تمشط به شعرها فى تحد كمن تدعوه للجرى خلفها ، ولما يئست من ذلك هجمت عليه ووضعت المشط فى شعره صائحة :

– خذ مشطك الهزيل . . . إنه خائب مثلك !

ونكشت به شعره فى عنف ، فامتدت يده وقبضت على معصمها ليمنعها ، فمدت يدها الأخرى وجذبت خصلة من شعره جذبة قوية فكاد يصرخ ، وقبض على معصميها بغيظ وعيناها تبرقان بمزيد من التحدى ، كأنها تصيح به :

– أتجسر ؟ أتستطيع ؟

فشدها إليه بعنف وقبلها قبلة سقطت بين أنفها الدقيق وشفتها العليا ، ولوى ذراعيها كأنما يريد أن يؤلمها ويوجعها ما استطاع ، ثم دفعها إلى الخلف بكل قوته ، فوقعت على الحائط الآخر للدهليز . وحملق فيها بدهشة وخوف وغيظ ، ثم تركها فى موضعها وأدار لها ظهره ، وعاد إلى الحجرة التى بها أمها وجدتها ، فحيا على عجل وانصرف . . .

ووقفت هى وراء وصاوص النافذة تتسقط لفتاته ، فرأته يتلفت إلى

أعلى خمس مرات ويلوح بيده لأمها الواقفة فى الشرفة ، ولكن عينيه كانتا تفتشان عن شيء آخر لا تعثران عليه . . . فازدادت دقات قلبها داخل صدرها الصغير ، حتى ضغطت عليه بكفها كأنما لتمنعه من الهرب . . . ثم تسللت إلى حجرتها ووقفت تتأمل وجهها فى المرآة . . . وتتحسس بيدها أنفها وشفتيها العليا ، وقد فاضت نظراتها بالسرور والخيلاء ، وجربت نظراتها الجانبية ، وهزات رأسها وتهدل شعرها ، ثم ارتمت على الفراش بوجهها ، فوجدت لبرودة المفرش على وجنتيها الملتهبتين وقعاً مستحبًّا ، فجعلت تمرغ على صفحته خديها . ثم انتصبت واقفة فجأة وراحت تطرقع مفاصل أصابعها وتنط فى الحجرة . وقد ضاقت بنشاط دمها إلى أن تذكرت حبلها فتناولته وقفزت به إلى أن انقطع نفسها ، فارتمت على مقعد وهى تضحك من نفسها . . . حتى إذا هدأت خرجت كالقنبلة تصرخ فى أمها :

– آكل ياماما . . . جوعانة موت !

فالحيوان الصغير الجميل يستمرئ حياته كلها ، طعاماً ولهواً . . . وحبًّا ! بمعنى واحد ، وطاقة واحدة ، وفى مستوى واحد . . .

* * *

وترقبت مدحت فى الغد ، وفى الأيام التالية . . . ولكنه لم يظهر . . . فكانت تفكر فيه أحياناً . . . دقائق قليلة فحسب ، ثم يجرف نشاطها الدافق تفكيرها . . . ولا يترك لها هدأة لمراجعة أو الروية أو الأسف . . . فتنطلق تعاكس الدادة السوداء ، وتخنق قطة الجيران ،

«وتنط الحبل» ، أو تقرأ ماجدولين ، أو تنزل إلى رأس الشارع لشراء قطعة حلوى ، كى تتمتع بنظرات الفتيان ، والشيوخ أيضاً . . . وهى تنظر إليهم بعينين تبرقان سروراً وتحدياً واستزادة . . .

وتعرج على صاحبة لها من بنات الخامسة عشرة تستمع إلى همسها المتقطع اللاهث حيناً ، والحالم الناعم حيناً آخر عن صاحبها الوسيم الذى يملك دراجة «رالى» ذات ثلاثة أجراس ، والذى يصاحب بدراجته قطار الترام الذى تركبه كل صباح إلى مدرسة بنات الأشراف مقدار خمس محطات . . . !

وقد تشارك صاحبتها «إنصاف» فى كتابة ردودها على رسائل «الروميو» . . . ولا تفتأ تغريها بالاستجابة لرجائه فتقابله لا شىء إلا لأن «حورية» مشوقة أن تعرف منها المزيد عن الحب بصفة قاطعة واضحة لا تقتصر على الأحلام والأوهام والرسائل «المنقوشة» من المنفلوطى ، والإشاعات التى لا تعتمد على تجربة صحيحة . . .

إنها تريد أن تعرف بأى ثمن . . . وبأى شكل . . . وبسرعة ؟ فإن تجربتها مع مدحت لم تكد تفقه منها شيئاً سوى اقتران الحب عند الرجل بالغضب والسخط والقسوة . . .

وهى شخصياً لم يكن يهمها كثيراً أن تقاسى . . . لو أن التجربة استمرت ، حتى تعرف بقية المسألة . ولكن هذا الفأر الخائب أدار ظهره ولم يعد ، كان واضحاً جداً أنه خائف منها ، وأنه ليس «روميو» بمعنى الكلمة .

واستمرت عيناها تبرقان بعد تلك الهزة الأولى ، فى إنتظار المزيد . . .

سى عز

الأب أول رجل فى قلب كل عذراء . . . وفى كثير من الأحيان هو الرجل « الأوحد » ذو ألف وجه فى حياة ابنته . ولكن ليس حيما يكون هذا الأب هو « سى » عز الدين .

نعم لابد من « سى » . . . إنها أهم كثيراً من « عز الدين » نفسه . . . فهو ليس رجلاً . بل هو رمز أو سلطة . أو وظيفة اجتماعية . إنه شئ رسمى ، وليس شخصاً من لحم ودم .

أيمكن أن يتراءى لك جندى المرور – مثلاً – شخصاً ذا جسد وأعضاء ووظائف حيوية ؟ إنه دائماً دفتر مخالفات ، وكمّ سترة مستعار ، ونور أحمر وأخضر وبرتقالى وصفارة ، ولا يمكن أن يخطر لك أبداً أنه رغبات ، أو مصارين ، أو عنصر بشرى من عناصر تكاثر السكان !

كذلك «سى» عز الدين ! لا تتصوره أبداً بدون «سى» . حتى إن امرأته الفينانة الأنوثة ، الفواحة بريحها الندية ، والتى أنجبت منه بنتين — لم تستطع قط أن تجرده من «سى» . هذه . . . حتى فى الخلوة ، لأنه بأكمله فى «سى» لا يبقى منه شىء إذا نزعت عنه ؛ ولهذا بقيت لاصقة به باستمرار .

وفى «سى» هذه تتلخص شخصية هذا الأب وهذا الزوج ، لم تحسه امرأته قط : «شخصا» . ولم تحسه ابنته قط شخصا ، إنه مجموعة أوامر ونواه وسلطة ونظام . . . هى بمجموعها نسخة من تربية أمه التركية ، مجموعة «أصول» . و «ترتيبات» ، بلا مزاج وبلا فردية ، وبلا خصوصية فى الرأى أو الإحساس !

صنم خاو ، من طين ، أو خزف ، أو ذهب . سيان ؛ فهو مرهوب مرموق ، ولكنه خامد جامد ميت . تنقر عليه فيرن . . . لأنه لا قلب له ، ولا جسد له ، داخله هواء بارد راكد . . . وليس فيه من حرارة الأنفاس شىء . . .

إنه نظيف ساكن ، لا ينمو ولا ينقص . دائماً جميل ومرموق . أما البشر فيزيدون وينقصون . ويصيبون ويخطئون . . . لا يعبدهم أحد .

إنه قد يضحك . وقد يبتسم . وقد يقطب . ولكنك تحس فى جميع الأحوال ، ومهما كانت درجة الانفعال أنه صنم ، شىء لا يتأثر باطنه أبداً مهما تأثر ظاهره ، لأن الأصنام جوفاء . . . ليس لها باطن ، أما ظاهرها فكل شىء ، وهو شىء خطير دائماً حقًا . . .

ولكن الدماء الشابة الدّافقة فى العروق الفتية لا متسع لديها من الوقت للتمسح بالأصنام . . . وهى على الأكثر تنحاشاها عن رهبة ، وتغض عنها عينيها ؛ حتى تستطيع أن تتجاهلها . . . كى تعيش ، وتنطلق . . .

الهيكل المستباح

«رتيبة» بنت بيئتها البرجوازية ، بنت الأصول «الأصولية» تزوجت وهى فى الرابعة عشرة قبل أن تتفتح تماماً ، فاخترلت طفولتها اختزالاً . وانتزعت من المدرسة إلى «بيت العدل» . . . إلى أحضان عريس محترم ، تتمثل فيه كل السلطات ، والمزايا ، والمعانى . وبحسب الأصول تشكلت بشكله ، وتطبعت بطبعه ، وطبع حياتها . . . فغدت سادنة الصنم وكاهنته بكل إخلاص واستغراق . . . !

ومن هنا سرت إليها عدوى الصنمية ، صارت صنما بمعاشرتها المخلصة للصنم ، لم تلمس باطنه لأنه بغير باطن ؛ ولم يتحرك له باطنها ووجدانها الدفين لأنه لم يلمسها ، ولم يشعر لها بوجود ، قياساً على خوائه . . . عرف فيها الزوجة ، وست البيت . أما المرأة فهيهات !

وتصنمت «رتيبة» كأنما طليت ذاتيتها الحية بالطين ، ثم جف الطين وتيبس وتحجر كالفخار ، فغطى كيانها ، وغدت بمظهرها صنماً مثل زوجها ، بيد أنها صنم غير أجوف ، صنم مزيف ؛ لأن بداخله ذاتا سجيناً ، مكمومة معصوبة العينين ، مخدرة لا تتحرك ولا تنطلق . . . كالبذرة النائمة داخل غلافها اليابس . . . !

وبهذه القشرة المستعارة عاشت «رتيبة» مع «سي» عزالدين ، وقد خفى - حتى عليها هي - أن تحت تلك القشرة طاقة حية من الوجدان ، معطلة عن الحركة والنشاط سنين عدداً . . .

حياة سطحية لا يتجاوز الانفعال بها أو فيها أديم البشرة ؛ فالضحك فيها ليس انبعاثاً من القلب ، بل دغدغة في باطن القدم أو الجنب ، والحزن فيها وخزة إبرة أو عضة نملة ، وغاية الإحساس فيها بالزوج أن تعرف «ما» هو؟ إنه السيد والصاحب والعشير ، أما «من» هو . . . فذلك ليس في الحسبان !

ومن سطح حيويتها أنجبت بنتيها ، وأخلدت إلى قرينها ، ورضيت عما أتاحته لها حياتها من قرة عين ، واحترام ، وسمت . . .

ومن سطح حيويتها حنت على بنتيها ؛ لا لأنهما «هدية» و«حورية» ، بل لأنهما ذريتها . . . إليها فخرهما حين الفخار ، وعارهما حين الشنار . . .

قشرة مستعارة تزداد كل يوم صلابة وقوة ، مثل لحاء الدوحة يزداد على المدى تليفا وبأساً . . .

ولكن اللحاء مهما تليف واشتد لا يمنع الجذع الذى بداخله أن ينمو ، وكذلك القشرة المستعارة : لا تتم على الكائن الحى الذى بداخلها . ولكن الكائن ينمو كما ينمو جنين الكتكوت داخل البيضة . ويظل فى نموه المتصل إلى أوانه الموقوت . . . وعندئذ إما أن تتحطم القشرة ليتنفس . . . أو يظل محبوساً بداخلها فيختنق ، بعد صراع قد يطول أو يقصر . . .

والمرأة . . امرأة ذلك الجيل على الخصوص . ما أكثر ما كانت تموت قبل أن تكتشف أن تحت قشرتها المستعارة - المستعارة من التربية والمجتمع - قلباً نابضاً وحياة دافقة وشحنة عاطفية ! . . .

وكانت رتيبة امرأة مثل هؤلاء . . . من الممكن أن تنمو ذاتيتها تحت القشرة المستعارة وهى لا تدرى ، حتى تبلغ غايتها من النماء . فتهم أن تنطلق ، وتحطم قشرتها . . . فإما أن تخنق القشرة حيويتها فتمرض بداء جسمى هو الترجمة البدنية للصراع الوجدانى المستور . . . أو بداء عصبى - يتأولونه بمس من الجان . . . وما الجان إلا الترجمة المشخصة لقوى الوجدان المعطلة والشحنة العاطفية المكبوتة . . . أو تتزلزل أساس العقل كما تنفجر البراكين فتحطم القواعد التى ظنت راسية رسو الجبال . . . وإما أن تتحطم القشرة . . . فإذا من صنعوها وفرضوها عليها - من أولياء العرض وحراس العرف - ينتقمون : إما بسلب الحياة ، أو سلب الاعتبار . . .

* * *

رتيبة اليوم قد جاوزت الثلاثين بعامين ، وإذا هي تحس فى نفسها أمراً لم تفطن إليه إلا أخيراً . ولكن لاشك أنه طرأ عليها منذ أمد وهى لا تدرى ! أصبحت لا تغض السمع عن أحاديث النسوة اللواتى يتوافدن على الدار . مثل زوجة البستانى والخبازة وبائعة الفاكهة . وإن لهن مع دادة الجارية لحديث ينبو عنه السمع لعف ولا مراء ، فهن يخضن دائماً فى الذى يكون بين الرجال والنساء من صلات خوضاً لا يرتفع كثيراً عما يكون بين الحيوان من آصرة صريحة فى عنفها وسفورها ! . . . وإن لهن فى الحديث عن هذه الأمور لتلذذاً خافياً أو ظاهراً يلكنه كما يلكن اللقمة المستساغة فى جوانب الفم جميعاً .

وما كانت قبل اليوم إلا أن تأنف من هذا الحديث ، وتزورّ عنه بالقلب قبل السمع ، أما اليوم فهى تحمر وتضطرب ، ويشتد بها الحنق ، وتتنهرهن . . . ولا تكتفى بالخروج كما كانت تفعل من قبل . ثم يزداد حنقها على نفسها وهى تضبط نفسها متلبسة بتصور هذا الذى سمعت ، وبتنويع ألوانه فى مخيلتها ، فتقنع نفسها أنها تستشعر التقزز والازدراء لمدرك الذى يعشن فيه . وإنها مع هذا لترهف أذنها لتلتقط من الحديث ندفا من وراء الجدار الذى يفصل المطبخ عن الحجرة التى تتلبث بها عمداً . . . وقد ترى يدها ترتجف وهى تعالج شيئاً من أغراض البيت ارتجافة الغضب فيما تريد أن تعتقد . وارتجافة الاضطراب الذى يصل إلى أمعائها ، أو — من يدرى — لعله منبعث من أمعائها . . . !

— أف لهن ! أى حياة هذه التى يحيينها ؟ حقًّا إن الإسفاف فى التربية

والمقام والخلق – يعنى كذلك الإسفاف فى الاهتمامات ، والانشغال بالقاذورات . . . !

قاذورات ؟!

نعم . وإنها لتحمد الله لأن «سى» عز الدين فاء إلى الهوادة ، شأن كل من أدركه الشبع والتخم ، فلا يأكل إلا لأن للطعام موعداً موقوتاً يستغرب التخلف عنه . . . فلا بطنة ولانهم !

وتتنفس بارتياح . . .

وإنها مع هذا لتثور بابنتها الثانية «حورية» لأنها تراها مصرة على تفصيل ثياب لا تليق بسنها ، تثور بها لا ثورة الأم «الأصولية» ، ولا لأن الثورة على التبرج شىء مفروض فى الأم ، بل تثور عليها ثورة جدية نابعة من نفسها ، لا من «لائحة الأصول» ، ثورة فيها غيظ ولدد وخصومة . . .

وتحمنق «حورية» قليلاً ، وتحس فى أعماقها زهواً غامضاً بفطرة الأنثى ، وأما «زيبة» فيحتقن وجهها ولا تهدأ ثورتها حتى بعد أن يفتر الموضوع ؛ لأن الثورة لا علاقة لها فى الحقيقة بالموضوع أو المناسبة ، وإنما هى عداوة أصلية قائمة تتمحل الأسباب كى تطل برأسها وتعلن عن بأسها . . . !

إنها المراهقة الثانية ، بعد الثلاثين . . . تريد أن تأخذ مداها الذى حرمته فى المرة الأولى ، ولكن القشرة المستعارة هناك !

وهذه الفتاة ، صغرى البنتين ينهد صدرها ، ويوشك أن يتفتح

برعمها فتكون نهاية كل فرصة أمام تلك الأم التى غبنت فى انطلاقة صباها .

إذن يجب أن يقف نمو «حورية» ! إذن يجب أن تبقى طفلة ! إذن يجب ألا تتمتع أو تصبو للذى فات أمها حين سرقوا منها يفاعتها ختلا .

ولكن هل تفهم «رتيبة» هذا ؟

كلا . . . بيد أنها تحسه : كالمريض يحس الداء وإن لم يعرف كنهه ! وإن قشرتها المستعارة لتأبى عليها أن تعترف بالحقيقة أمام نفسها . فتصور لها حسدها للنسوة السوقيات فى صورة الازدراء والاستنكار ، وتصور لها حسدها لابنتها الناهد فى عصر متحرر بصورة الاستياء من بنات هذا الزمن الأغبر . . . !

الزنديق

طلع الصبح ذات يوم فإذا «الست رتيبة» تأخذ سمتها إلى المحطة ، لتسافر إلى «كفر الشيخ» ، وهناك تجد أخاها «شوقى» فى انتظارها فى «دوكار» الدائرة ، دائرة «العسال بك» التى يعمل وكيلاً فيها منذ توفى والده وكان وكيلاً للعسال باشا الكبير من قبل ؛ فقد وصلت برقية منه أن والدته مريضة . . . ولما كان هناك سوء تفاهم مزمن بين «نجية» زوجة شوقى وبين حماتها ، حتى إن أم شوقى صارت تقيم فى البيت الكبير القديم بمفردها مع خادمة عجوز ، ويقيم شوقى مع زوجته فى بيت حديث به بانيو ونور كهربى فى بندر كفر الشيخ نفسه . . . فمن الذى يمكن أن يمرض المسكينة العجوز ؟ لقد خسرت ابنها الوحيد بالزواج ، ولكن لم تزل لها — بحمد الله — ابنتها «الوحيدة» رتيبة ، فما كان الزواج ليمنع أبداً بنتاً عن

أمها . . . !

واستقبلها شوقى على المحطة بوجه مضطرب يجمع بين الألم والحيرة والتضاؤل لشعوره بالتقصير فى حق أمه . . . وأنه متهم - بحق - بالضعف الشديد أمام امرأته . . . بالرغم من هذا الطربوش العامق الضيق القمة المكبوس فى رأسه إلى أذنيه ، وبالرغم من هذا الشارب المفتول مع جزء من شعرات الصدغين ليزيد انتفاشاً وصولة ، فليس من المنتظر أن تنطلى هذه التهويلات على أخته التى يعرف لها طول عمره نظرتها الثاقبة وتمسكها بالجد . . .

وفى تخاذل عزم عليها أن تتغدى فى بيته أولاً . . . ثم يذهبان إلى الضيعة . وفى فتور أيضاً أجابته رتيبة :

- ليس هذا وقته ، أترانى جئت وتركت بيتى وحالى كله لأتغدى فى ضيافتك ؟ . . .

وبلع ريقه ، لأنه كان يخشى أن تقول !

- عند نجية . . .

ولكنها لم تقلها وإن كانت لهجتها واضحة فى التلميح إلى ذلك المغزى ! وقال بلسان ملتو من الارتباك . . .

- الحقيقة أنى كنت أريد أن أنقلها إلى بيتى هنا . . . لتكون العناية أكثر والأدوية و . . . كل شىء . . .

فقالت بلهجة حاسمة :

كان الأولى أن تنقلها عندى . . . مصر أم الدنيا . . . هناك

الطب . . .

فأسرع يقول بلهفة :

– من جهة الطب ، لا تقلقى بالك . . . زكى بك لا يألو جهداً . . . وهو الذى لا يترك عيادتها مرتين بل أربع مرات أحياناً . . . الله يطول عمره . . .

فقطبت حاجبيها ونظرت نحوه مشيحة عن نافذة الدوكار التى كانت تطل منها طول الوقت على مناظر الحقول تحاشياً منها للنظر إليه :

– زكى بك ؟

– زكى بك . . . الدكتور زكى العسال . . . عاد من أوربا . . .

فحملقت فى وجهه وهى تقول كمن عرفت شخصاً بعد توهم وجهد :

– الزنديق ؟

– بعينه ! دكتور عظيم ! آخر علم ! . . . أصر أن يعالجها بنفسه ، الأصل الطبيب لا يجيب مطلقاً ، أثمرت فيه التربية والعشرة ، وهو الذى قرر أن نقلها خطر . . .

ولم تستطع رتيبة أن تمنع عن شفتيها ابتسامة حالمة وهى تتذكر هذا الفتى الطويل المستدير الوجه المحدب الأنف اللامع العينين فى خبث وهو يعابث الفقيه الأعمى معلم الكتاب معابثة قاسية ، والرجل لا يملك إلا انصمت إزاء ابن سيد الضيعة المطلق . . . وازدادت الابتسامة عرضاً فى وجهها وهى تذكر يوماً بالذات . . . اجتمع فيه الناس كلهم حول الشيخ

«زيان» يتلوّون من الضحك ، والأعمى يكاد على حد تعبير زكى يفتح عينيه من فرط الغيظ . . .

فإن هذا الملعون أتى بعصا غمسها فى شىء من روث البهائم الذى يكثر فى طرقات الضيعة ، وأقبل على الشيخ زيان بصوت مرتعش من البكاء — فما أبرعه من ممثل هذا العفريت !

— أرأيت يا سيدنا ما فعل عريفك بى ؟ هل يرضيك هذا ؟ أترى ماذا يصنع والدى به لو أخبرته ؟

— ماذا حدث يا ولدى ؟ لعنة الله على هذا المنكود !

— أمسك يا سيدنا بيدك لتعرف ضراوة العصا التى لسع بها ظهرى وكاد يكسر عمودى الفقرى . . . أمسكها بربك لتحكم بنفسك . . . !

وقرب الملعون العصا من الفقيه الضرير ، فقبض عليها وهو يتعوذ ويحوقل ويدعو على العفريت بالويل والثبور وعظائم الأمور . . . وفى الحال جذب زكى العصا وهى فى قبضة الشيخ ، فإذا بالنجاسة قد غمرت يده . . . !

وأدرك الكفيف الملعوب ، فصرخ سابًّا لاعناً . وتجمع الناس على صوته ، وما رأوا المنظر حتى ضجوا بالضحك وصراخ الرجل يتعالى يسب آباءهم وأجدادهم ، وهو يجرى على غير هدى متهدداً بعذاب جهنم هذا «الزنديق» . . .

ومن يومها واسم الزنديق ألصق به من اسمه الأصيل . . .

هل حقًّا كبر «الزنديق» وصار طبيباً يشار إليه بالبنان ؟ ما أسرع مرور

الأيام ! إنها لا تكاد تصدق أن تراه تغير أو كبر أو صار فى هيئة الرجال ذا جد وسمت . لا أخا عبث ومجانة واستهانة بكل محترم مصون . . . !

حتى أبوه لم يكن ينجو من مجونه واستخفافه . . . كان يسميه « خيال المآتة » ، ويقسم أن زمجرته و « هلضمته » فى الفلاحين ليست إلا تمثيلا خائباً ، وأنه يرتعد أمام زوجته التركية – وهى امرأة أخرى غير أم زكى تزوجها بعد موتها . . .

– بالكم جلفدان هانم أفندى بأى اسم تدعو سيدكم أبويا خيال باشا المآتة ؟ ، غلب حماركم ؟ أجدع اسم خسارة فى جثته . . . !

« أبو زعبوط » ! . . . يعنى بالعربى أنا ابن أبو زعبوط . . .

ثم يقبض على أنف أى غلام من غلمان الفلاحين يكون بين حلقتهم التى تتبعه دائماً فى مغامراته الشائقة ، ويلوى أنف المسكين بين إصبعيه وقد رفع حاجبيه ، وهو يصيح !

– قولوا معايا . . . يا أبو زعبوط . . . شىء لله !

– شىء لله يا أبو زعبوط . . .

– أمك هبله وأبوك معبوط . . .

– أمك هبلة وأبوك معبوط . . .

– هيه . . . !

ويصيح « الكورس » الريفى كله !

– هيه . . .

ثم يجرى ويتبعونه إلى مغامرة من مغامرات شيطنته التى لا تنتهى . . .

. . . وتنهدت رتيبة وارعوت عن هذه الذكريات الباسمة التى استرسلت فيها وهى تطل من النافذة ، واستاءت من نفسها لذلك الاسترسال غير المناسب وأمها طريح الفراش . . .

حقًّا لم يكن ينسى هذا الزنديق زندقته واستخفافه بكل الأقدار والأخطار والشخصيات إلا حين يدخل عند أمها . . .

– يا خسارتك يا خاله « زهرة » فى خلف الندامة . ابنك وبنتك هذين ! أما تشاورين عقلك تعطيهما جنفدان هانم أفندى ، وأقعد أنا معك هنا ؟ أقله أجيب لك شكل الناحية ثلاثين مرة فى النهار !

وتضحك أمها وتقرصه فى أذنه بلطف ، فيرتمى على الأرض يتصنع الموت ويصيح بصوت مضحك !

– عليك العوض يا خيال باشا المآتة يا أبو زعبوط فى حيلتك من ظهر الدنيا . . . قتلته خاله زهرة . . . أديرينى على القبنة . . . !

وفجأة يستوى جالساً على الأرض كالعفريت ويقول بكل جد وفزع وهو يشير بسبابته محذراً . . .

– بس على شرط . . . أمانة فى رقبتك يا خالة زهرة . . . اوعى الشيخ « زيان » يبجى ناحيتى . . . أحسن ترد فىّ الروح على طول وأقوم أعضه وتبقى مش لطيفة !

وتجرى أمها خلفه ، ويسرع هو كالسهم مارقاً إلى الشارع وهو يصرخ كالشيطان :

– يا أولاد حارتنا . . . يا اولاد . . . تعالوا نصطاد وطاويط فى مخزن

التين فى دوار أبو زعبوط . . . !

هل يمكن أن يكون هذا المهذار قد صار رجلاً وطبيباً ومؤتمناً مسئولاً عن حياة الناس ؟

إنه تصدق على كل حال أنه يحب أمها ، ويريد إنقاذها ، ولكن هل يعرف ؟ هل يقدر ؟

إنه لا يصلح ابداً للجد ، فسيرته وحدها كافية لجذبها — وهى الجادة المكروبة لمرض أمها وخيبة أخيها ورخاوته — إلى جوه الماجن السادر الذى لا يعرف له جد من هزل . . .

وقطعت عليها خواطرها رجفة العربة وهى تقف فجأة أمام ذلك البيت العتيق المبنى من الطوب الأحمر الذى ولدت فيه ونشأت ، والذى تقيم فيه الآن أمها بمفردها فى الجهة الخلفية من مساكن الضيعة بالقرب من الجرن ، وليس أمامه إلا الحقول على مدى البصر . . .

الكونسولتو

قفزت رتيبة من «الدوكار» واندفعت حتى كادت تنكفئ بعتبة الباب الخارجي العالية التي طالما تعثر فيها الداخلون والخارجون ولم يفكر أحد في إزالتها ؛ لأنها كانت تكئة امتطاء الركائب والنزول عنها ؛ وردتها هذه العثرة عن غلوائها قليلاً . فارتقت الدرج بعد أن اجتازت الفناء الداخلي في لهفة أقل مما كانت عليه ، وأخوها من خلفها يجتهد أن يلاحقها ، فلم يدركها إلا عند قمة الدرج ؛ ليشد على ذراعها بإصبعيه شدًّا ذا مغزى :

– تماسكي ؛ فإنها شديدة التنبه للبكاء . تنظر إلى من يبكي بعينين قلقتين . . . إنها تنتظرك . طالما هذت باسمك . . .

فوضعت رتيبة يدها على فمها ، ونفر الدم إلى وجهها ، وطفر الدمع

من عينيها ، وحبست شهقة ، وهمت أن تندفع إلى حجرة أمها فى أقصى اليمين من الدهليز لولا أنه استوقفها فى حزم :

– امكثى حتى تتمالكى نفسك قليلاً . . . يجب ألا تظهرى لها جزعاً . حتى لا يأخذها الذعر على نفسها . إن طمأنينتها بيدك أنت ، تذكرى هذا . . .

فقالت فى هستيرية :

– فهمت . . . لن أظهر شيئاً . . .

وفى الوقت عينه انهمرت دموعها على خديها . . .

– وهذه الدموع ؟ . . . !

فأسرعت تمسحها كمن تخفى شيئاً مسروقاً وقالت :

– هذه لا شىء ، هآنذا أضحك . . . انظر . . .

وابتسمت ابتسامة مرتعشة على شفتين تختلجان بالنحيب . . . وكأنما أعياها هذا المجهود المتناقض ، فانفجرت باكية تعض شفتها حتى تكتم شهقاتها وزفراتها ، وانقادت ليديه وهو يدفعها إلى أقرب حجرة بها أريكة إستامبولية وبضعة مقاعد . . . وتناول قلة ماء حمراء من فوق إفريز النافذة ، فتجرعت الماء ونضحت وجهها بشىء منه ، وجففته بمنديل قدمه إليها أخوها ، فهدأت نثرتها . واتجهت إلى حجرة المريضة .

وأجفلت وهى على عتبة بابها عندما وقع بصرها على ذلك الشيخ الهزيل الذى يغطى رأسه كيس من الجلد رمادى اللون ، به ثلج ، وللأنفاس ارتفاع و انخفاض ملموسان جداً فى لحافها الأحمر المنقوش .

وقبل أن تصل إلى الفراش أوشكت أن تصطدم هى وعجوز ريفية تقدمت نحوها وهى غافلة عنها كى تسلم عليها ، فقبلت يدها وهى تطمئنها وتسرى عنها بكلمات ساذجة من فمها الخالى من الأسنان .

ما عندها إلا السلامة وحياة سيدى إبراهيم . . . شىء لله يا أبو خليل . . . !

وكأنما كانت تكلمها من وراء ضباب كثيف . فما تدرى بماذا أجابتها ؟ أو هل أجابتها إطلاقاً . . . ؟ وتثاقلت خطواتها كأنما بها وقر من الأغلال حينما اقتربت من فراش أمها كمن تشفق أن تتلاشى آخر مسافة تفصلها عن الواقع الذى تفرق من يقينه . . .

وخرج صوتها من فمها كالحشرجة وهى تنادى المريضة :

– أمه . أمه ! .

وفتحت المريضة عينيها بعد لأى فتحة جد يسيرة ، ونظرت نظرة هائمة من بين جفنيها الذابلين ، وكأنها استجمعت كل قوتها فى تلك النظرة ، ونفدت طاقتها ، فأغمضت عينيها ثانية ، فأحست رتيبة أن أمها أطلت عليها من قلعة منيعة . ثم أغلقت كوتها واعتصمت منها بعالمها المقفل . . . !

وتقلصت يدها على ملاءة السرير ، ورفعت عينين حائرتين إلى العجوز الخادمة وسألتها بصوت خافت مستكين :

– ألا تعرف أحداً ؟

وقبل أن تسمع جواب العجوز ارتفعت فى رحبة الدار السفلى همهمة

عالية ، وسمعت صوت أخيها يرحب بقادمين . . . فقالت العجوز ترد على التساؤل الذى بدا فى وجهها :

– سيدنا البك الدكتور . . . ومعه زملاء له ، أحضرهم – أطال الله عمره – للتشاور . . . والله يقدم الخير من عنده . . .

ولم يلبث أخوها أن دخل فأخرجها هى والخادمة ؛ ليتفرغ الأطباء لاستشاراتهم وفحوصهم ؛ وانضم إليها أخوها بعد دقيقة ، والحيرة ظاهرة فى نظراته ممزوجة بشىء من البلاهة والقلق والافتخار . . . !

هو حائر طبعاً لا يدرى ماذا يجب أن يفعل ؟ وكيف يجب أن يبدو أمام أخته رتيبة . . . حتى لا تظن به الظنون فى رعايته لأمها واهتمامه بها وحزنه لمرضها . . . إلى أى حد يجب أن يبدو عليه الحزن والهم ؛ ليظفر من هذه الأخت بوصف الابن البار؟

هذه مسألة خطيرة بالنسبة له كعميد أسرة غير مطبوع على العمادة والسيادة . وإنما هى ظروف كالظروف التى ألبسته الطربوش الغائص إلى أذنيه ! ويجب طبعاً على الرجل الحصيف أن يلبس . لكل حالة لبوسها ، وهذه أول مرة يجد نفسه فى حالة مرض أم ، ومرض الموت فى الغالب . . . وليس أمامه «مشق» يحتذيه ، كمشق الخط فى المدرسة الأولية ! إنه رجل تقليد ، وليس ابن طبعه أو فطرته ، وهذا هو سر حيرته . . . وهو أيضاً سر تملقه – بالنظرات – لأخته بنت البندر . والسيدة القاهرية . إنها تتمتع عليه بنوع من السيادة والرقى . ورضوانها عنه وعن بره بأمه ، وعواطفه وتصرفاته فى هذا الموقف الحساس – شىء

له أهميته القصوى فى نظره .

وأما الافتخار فلا غرابة فيه ؛ فمن فى الريف يملك أن يعقد فى بيته «كونسولتو» أو مجلساً استشارياً من جملة أطباء لفحص أمه المريضة ؟ هذا لون من «العز» ما فى ذلك شك !

وأما البلاهة أو قلة الحيلة فهذه صفة أصلية ناجمة عن خواء الطبع وضآلة الإدراك وسطحية الإحساس . . .

وليس معنى هذا أنه لم يكن يحب أمه . مستحيل ! إنه يحبها جداً ؛ أى بأقصى ما يستطيع تكوينه السطحى . وما كان أحد ليطالبه بأكثر من ذلك لو أنه ترك الموضوع عند هذا الحد ، ولكن الأبله لم يترك المسألة فى حدها الطبيعى ، وأبى له «اجتهاده» إلا أن يبحث عن أحسن ما يجب من الشعور كى يتظاهر به ؛ أو يوحيه إلى نفسه ؛ لأن المسألة مسألة «أصول» ، وهو لا يصح أن يكون متخلفاً عن زيد أو عمرو فى أى شىء . . . حتى فى خصوصية تامة كحب الأم !

لذا دخل عليها شوق بعينين زائغتين بالحيرة والتملق لامعتين بالافتخار ، وتطلع إليها فى استطلاع . ولما وجدها جالسة على طرف الأريكة ويدها على خدها لا تنظر إليه شرع على الفور يسترعى نظرها وسمعها إليه . . . فضرب كفاً بكف ، وتناوح زر طربوشه وهتف بصوت لا يتناسب فى نحافته وجسمه وشاربه الكث :

– أين كان هذا كله مخبوءا لك يا أماه ! أين ؟ أين ؟ . . .

فرفعت إليه وجهها وفكها معتمد على قبضة يدها ، وكوعها فوق فخدها ، ثم زفرت فى صمت ، وأسبلت جفنيها مشيحة عنه كأنما سمعت ضجة فى الشارع ، ففتحت النافذة وأطلت منها لحظة واحدة ، ثم أغلقتها وعادت إلى خاص شأنها فى الداخل . . . !

– فضله واسع يا رتيبة يا أختى ! هو الكريم قادر بكرمه وفضله يرفع عنها هذا البلاء المحيق !

ورفع سبابته وجعل يطوحها فى الهواء أمام وجهه وهو يقسم :

– والله ! والله ! والله ! ثلاثة بالله العظيم ما أبقيت فى وسعى شيئاً لم أفعله من أجلها . . .

وسكت سكوتاً ذا مغزى كأنه يتحداها أن تنكر الحجة الساطعة والآية الناصعة على صدق دعواه . ألا وهو الكونسولتو الذى يدور ، لا يفصله عنها إلا جدار الحجرة . . .

وهمت أن تقول شيئاً أى شىء ، لأنها شعرت أن كلامه يستدعى رداً ، حتى لا يشعر أنه فى الحجرة وحده . . . وإذا بصوت أجش رنان ارتجفت لسماعه كأنها صغرت عشرين سنة :

– يا أبا الأشواق ! ياسى شوقى !

وهرع « أبو الأشواق » غير مبال « بالمثقلات » التى يكادينوء بها : من فردتى شاربه الكث ، وطربوشه الغامق ، وسلسلة الساعة الغليظة . . .

شىء عجيب ! كأن هذا الصوت عفريت خرج من قمقمه بعد

حبس دام سنوات وسنوات ، فإذا به هو هو . لم يغيره الزمن ، ولا الحبس ولا السن . . . ولا أى شيء . . . حتى لقد توقعت أن ترى صاحبه ينط فى وسط الحجرة بشيطنته التى تبدو أنها لا تبالى شيئاً حتى الزمن ! . . .

يا بنت ستى

وانتقل لغط الكلام إلى الردهة ثم إلى السلم ، وسُمع محرك السيارة وهو يدور أمام الباب وسكنت الأصوات ، فأدركت رتيبة أن الأطباء انصرفوا ، فدخلت الحجرة على والدتها لتجدها على حالها فى غيبوبة . وتطلعت كالمتسائلة نحو « خالة بهانة » ففطنت العجوز بفطرتها إلى ما يخالج الابنة من قلق ولهفة فقالت :

– ما عندها إلا الخير وحياة سيدى إبراهيم . . . سيشفيها الله ببركة المصطفى وأهل بيته . . . لقد ذهب سيدى مع الأطباء ليأتى بالدواء من البندر . . . بيده الشفاء . . . هو المطلع وهو الشافى . . . !

ولم تجد رتيبة ما تصنعه إلا أن تجلس على طرف الفراش ، وتجس يد أمها . فلا تحس فيها استجابة ، وتمسح على وجهها فتجده يكاد يلسعها

بحرارته . . . وتتسلل خالة بهانة إلى المطبخ لتعود وعلى يدها خوان صغير من النحاس الأصفر فوقه أدوات القهوة ، فوضعته على منضدة رخامية بيضاوية الشكل كانت تزدحم بقوارير العقاقير ، وبراد به بقية من صبغة الجاوى ، وانصرفت إلى صنع القهوة ، وهى لا تكف عن الكلام فى أحوال المريضة ، ومحبة الناس لها ، ورعاية الدكتور زكى وعطفه المتصل .

– . . . ولولا تشددى ألا يقوم بخدمتها سواى لأحضر الست «مهجة» ، ولتركت العيادة وتفرغت لتمريضها بنفسها ، ولكنى وحياة ستى ومقامها عندى وغلاوتها أبيت وأقسمت . . . وهل كان هذا يصح ؟

وسألتها رتيبة فى غير اكتراث لمجرد قطع الوقت الذى بدا ثقيلاً جداً وهى تنتظر ما يتمخض عنه حضور شقيقها بالدواء وقرار الأطباء بعد الكونسلتو :

– مهجة ؟ من مهجة ؟

– ألا تعرفين الست مهجة ؟ آه ! صحيح ، أنت لم تريها . . .

وضحكت ضحكة خشنة يبدو أنها كانت تريدها ناعمة ، ولكن تقدم خاله بهانة فى السن جعل ضحكتها تبدو حادة ذات أسنان تهم أن تنهش بمعانيها وتوريتها :

– . . . الحكيمة . . . الدكتورة . . . مساعدة سيدى زكى بك ويده اليمنى فى العيادة والمستشفى ، فى البيت والغيط !

وحدقت رتيبة فى خاله بهانة كأنها تريد أن تستوضحها . والحقيقة أنها كانت شبه نائمة تحت تأثير دوامة الحوادث . ووطأة الموقف ، فنبهتها هذه

الضحكة ثم هذه العبارة ، فحملقت كما يحملق النائم نبهه من نعاسه أحد الناس بهزة مفاجئة . . .

– البيت والغيط ؟ أى غيط ؟

فتصنعت العجوز الوقار ، وجمعت شاش طرحتها على رأسها وهى تقول :

– أستغفر الله العظيم . . . كلام الناس كتير . . . وسبحان العالم . . . والناس لها الظاهر . وبعض الظن إثم . . .

ورمقت سيدتها بنظرة خاطفة لتستطلع وقع كلامها على وجهها ، فوجدتها بادية الاهتمام بما تقول ، واطمأنت إلى قوة تشويقها ، فتنهدت وسكتت برهة يسيرة ثم استطردت :

– كلام الناس كتير . . . كانت حكيمة معه فى الحميات . . . ثم استقال لما أرادوا أن ينقلوه من البلد ، واستقالت معه الست مهجة . . . وفتح ربنا عليها . . . الحقن تعطيها ست مهجة ، البقشيش الحلو لست مهجة . الكلمة فى كل شىء فى عيادته ومستشفاه للست مهجة ، هى التى تقاول المرضى ، وهى التى تحاسب الفلاحين مع سيدى شوق . . . العقبى للحبايب ! الذهب من هنا لهنا . وعلى قلبها ملايين !

وأشارت إشارة معبرة من ذراعيها من الكوع إلى المعصم .

– . . . وتصدق بالله «كثير طلبوها . أصلها . .» ومالت فوق رتيبة كأنما تسر إليها سرًّا خطيراً .

– سمراء صحيح قمحاوية ، لكن تقاطيعها حلوة . وسنها

ضاحك ، وشطارة الدنيا فيها . . . وجسمها مفصل . . . واللبس يعدل المايل . . . على رأى المثل . . . ولم تقبل الزواج من أحد منهم . . .

ولم تستطع أن تقرأ على وجه رتيبة تعليقاً ، فسكتت قليلاً ، ثم استأنفت بقية الرواية :

– . . . ابن شيخ الخفراء حب يأخذها على أم العيال ، ويطلق أم العيال . . . حتى هذا لم تقبله . . . والست مهجة هذه هى التى أراد سى زكى بك أن تمرض والدتك . من شدة محبته لها . لكن خادمتك لم تقبل . . . يبقى عيب !

وأوشكت القهوة أن تفور ، وإذا خاله بهانة تتذكر فجأة شيئاً ما فتدق صدرها الأسلح بيدها المعروقة كأنما كارثة كبيرة قد وقعت وهى لا تدرى . وصاحت :

– ماذا جرى لعقلك يابت يا بهانة ! بسم الله الرحمن الرحيم ! قطيعة تقطع ست مهجة وسنيها الغبراء !

– خيراً يا خاله بهانة ؟

– خير يا ستى خير ! أنسانى الشيطان أن آتيك بلقمة ، وأنت قادمة من سفر طويل يابنت ستى !

قبل أن تحاول رتيبة استبقاءها كانت قد وثبت وطارت إلى المطبخ وهى تصرصر بصوتها الحاد الذى يكمل صورتها ومشيتها المنقضة وأنفها المحدودب كمنقار الحدأة . . .

– أصل مخ خالتك بهانة خرب من القهر . والكبر عبريابنت ستى !

ولم تمر لحظات حتى عادت تنقض فى مشيتها إلى الأمام ، كأنما تنحدر من جبل ، ورأسها يتقدّمها بمنقاره وعينيه وضفائر الصوف المعلقة بشعرها بمثابة شعر مستعار ، علقت به خرزات خضراء ، وقطعاً مستديرة من الذهب القشرة ، وعلى يدها خوان كبير من الصاج المستدير مطلى باللون الأحمر ، فوقه أرغفة رقيقة من خبز البيوت الريفية ، وقشدة وزبد ، وبيض محمر . . .

– لم يتسع لى الوقت كى أطهو شيئاً يليق بمقامك يا بنت ستى . أدرك الكبر خالتك بهانة ، ولم يترك لى مرض ستى عقلاً ولا بالاً . . . شفاها المولى !

ونظرت رتيبة إلى المائدة الريفية فى شىء من التردد ، ثم ارتسمت على وجهها رغبة طفرت من الأعماق فجأة ، فرفعت عينيها إلى بهانة وقالت :

– ومن أين أجد الشهية لكل هذا ياخالة بهانة ؟

– وهل تراك تقوين على الصيام عن الطعام ؟ قسماً بحياتك وحياة ستى ! لو كان الصيام يشفيها لصمنا إلى يوم القيامة العصر . . . ولكن لن يفيدها ، ونحن بحاجة إلى الزاد لنستطيع خدمتها . . . وقاك الله السوء وأبقاك يابنت ستى ! كلى . . . اغصبى نفسك ، فما تعرف البطن الأحزان . . . !

– أليس عندك شىء من الجبن القديم . . . وفحل بصل ؟

– ياقلب خالتك بهانة من جوه ! نفسك حليانة ! عندى يابنت ستى !

البرغوث

وأقبلت بهانة بطبق الجبن الضانى ، جبن الغنم ، وقد عتق فى دنه أعواماً حتى غدا المش فى صفرة الكهرمان الناضج ، غليظ القوام ، يتحلب له الريق الريق العريق . وبجواره فحلان من بصل ، وأعواد من السريس فى خضرة يانعة ، عليها قطرات الماء من بقايا الغسل كنثار اللؤلؤ ، وقارورة من زيت السيرج الفيروزى اللون وليمونات . . . أقبلت بهانة بها فى زهو من أتى بالرغيبة للحبيبة ، على اقتدار بالتلبية ، وتقدير للذَّوق الذى انتقى ، فأحسن الانتقاء والمشتهى . . .

– كلى هنيئاً يا بنت ستى . . .

– بل كلى معى ، لتواتينى الشهية .

– كريمة بنت كرام . . . بسم الله الرحمن الرحيم . . .

وشغلها الأكل لحظات لا يسمع فيها إلا صليل الأساور الفضية فى ذراعى بهانة وهى تمزق الأرغفة فى لقم كبيرة ، وتطويها بالجبن المعتق فى فمها الواسع ، أو تمسح الدمع الذى أساله البصل بحرقته من مقلتيها الخابيتين .

وزوت رتيبة ما بين حاجبيها فجأة كمن أقلقها خاطر :

– ما بالها لا تتحرك ولا تئن يا خالة بهانة ؟

– إنها الحقنة التى حقنها بها سيدى زكى بك . . . سكنت ألمها فنامت نوم العافية على بركة الله . . . ونهانا أن نقلقها حتى تتنبه ، وسيعود ابن سيدى . – أطال الله عمره وعمرك – بالدواء . . . فكلى يا حبة العين ولا تقلقى !

وعادت رتيبة إلى الطعام ، ولكنها لم تصب منه بعدها إلا لقيمات متباعدة على وناء . . . كانت تمضغها فى تثاقل . فإن وطأة الجوع كانت قد ارتفعت عنها ، حين ظنت أن سكون أمها أقلقها واسترعى اهتمامها . ولم يستطع الطعام بعدها أن يشغلها عن الحالة المسيطرة على جو البيت ، وجو نفسها المنغصة بمرض أمها الثقيل الغامض الذى فجأها .

ونفضت عن يديها الفتات ، ثم تمتمت فى آلية أشبه بالمضض :

– الحمد لله . . .

– زيدى يا بنت ستى . لم تأكلى شيئاً . . . !

– نحمده ونشكر فضله . أكلت .

ونهضت فى شىء من العناء استشعرته عضلاتها ومفاصلها من وطأة

الهم الذى أنهك أعصابه فسحة ذلك النهار .

وذهبت لتغسل يديها ، فوثبت بهانة واستبقتها ريثما تحضر لها الإبريق والطشت . وسرعان ما رجعت تحملها فى خفة ترجع إلى المرأة الطويلة ، وعلى قبة مصفاة الطست الأبيض صابونة من النوع النابلسى الذى لا تسيغ أمها سواه بحال من الأحوال . وتذكرت رتيبة عادة أمها تلك ، وتشبثها بها ، فانتفض فؤادها بحنين متوجع ، وزفرت وهى تستغفر الله ، وغسلت يديها ، ومسحت على وجهها بالماء . . .

وارتفعت من أسفل الدار سعلة أخيها شوقى ، وهتفت بهانة :

– ها قد عاد ابن سيدى . . . جعل الله فى ركابه السلامة وفى دوائه الشفاء .

وتلاقى نظر شوقى ونظر أخته فى تساؤل صامت ، وردت عليه فى خفوت :

– كما هى . . . أذعنت من أثر الحقنة ونامت . . .

فوضع شوقى لفافة الدواء من يده على المنضدة ، وجلس على المقعد بجوار الفراش ، ومسح بكفه على جبهته ووجهه كله كمن يتيمم ، ونفخ من فيه نفخة قوية وتعوذ من الشيطان الرجيم .

– بيده وحده الأمر . . .

ومال بنظره إلى المنضدة ، ومد يده إلى لفافة الدواء فاستخرج منها قارورة وكيساً من الورق :

– هذا الكيس فيه لصقة توضع على الظهر . . . وهذه القارورة فيها

دواء للاستنشاق . . . توضع منه ملعقة صغيرة على ماء يغلى فى كوز ، أو براد شاى . . . فيفتح الرئتين ويسهل التنفس . . . وبيده وحده الشفاء . . .

وساد الصمت قليلاً ، وفيه شىء من الحرج الذى ارتسم على وجهه . فنظرت إليه أخته نظرة تساؤل وقالت كأنها تخمن ما به :

– أأضع لك لقمة تأكلها . . . ؟

وقفزت بهانة من مجثمها على الأرض تنوى أن تصدع بذلك الأمر ، فرفع شوقى يده يستوقفها ، وأشاح برأسه فى سأم وهو يمط شفتيه :

– ما بى رغبة فى الأكل . . .

فرشقته أخته بنظرة ثاقبة ، وقالت وهى تشير برأسها إلى بعيد . . .

– لعلك أكلت هناك . . .

وأدرك أنها تعنى بهناك هذه بيته فى كفر الشيخ عند زوجته نجية ، فاحمر وجهه كمن ضبط متلبساً . وقال :

– آكل إيه ؟ . . . مسكينة هى الأخرى . . . حالتها صعبة . . . لا تسر أحداً . . .

فأسبلت رتيبة عينيها ، وعبثت أصابعها بالأساور الذهبية التى فى ذراعها الأخرى ، كأنها تحصيها ، وكأن إحصاءها يحتاج إلى انهماك شديد ، وقالت فى خفوت بارد :

– سلامتها . . .

وقامت تتشاغل عنه بحس جبين أمها وكفيها ، وحبك الأغطية حول

رقبتها ، مع أنها لا تحتاج إلى حبك ، ثم عادت إلى الجلوس . . .

وطالت فترة الصمت ، حتى قطعها شوقى بتأفف ، وهو يهرش بانهماك قفاه ، وظهره تحت الثياب وبطنه ، وتطلعت إليه أخته فى تساؤل ، فقال :

– هذا البرغوث ! . . هرانى الملعون !

وانبرت بهانة تقول :

– ليس عندنا براغيث ومقام سيدى . . .

فكسرت رتيبة عينها وقالت بخفوت مصطنع :

– البراغيث لا تطوف إلا بالضيوف . . . فلوكانت هنا براغيث لكنت أنا التى أحسست بها ، لا أنت . . . !

فتطلع إليها فى حيرة كالمعتذر وقال :

– احمدى الله الذى جعلنى فداك . . . هذا الملعون ! ليتنى أقبض عليه !

فافتر فمها عن ابتسامة ذات مغزى ، وقالت :

– من يدريك أنه برغوث ؟ . . . لعله برغوثة . . . أنثى . . . ولعلها جاءت معك من كفر الشيخ . . . وأضنتها الغربة فاستحثتك للقيام . . .

وحملق فى وجهها كمن لا يفهم ، فاستطردت .

– قم أنت يا أخى وعد إلى بيتك ، فزوجتك مريضة ، وهى وحدها . . .

فقاطعها بحرارة :

– وهل هذا يليق ؟ أأتركك وحدك ؟ . . .

– وما الذى يجرى لنا ؟ معى خالة بهانة . . .

فظهر عليه التردد ، فقالت بهانة :

– ولو احتجنا لشىء فعندنا تليفون السراية ، ويأتى سيدنا البك الدكتور ولو فى نصف الليل . . .

فهز رأسه ونفخ كمن لا حيلة له ، وقال :

– حياة كلها متاعب وحيرة ومرض . . الأمر لك يا رب . . .

ونظر إلى أخته وقال وهو يبسط يديه أمامه :

– لو لم تكن نجية مريضة أيضاً ووحدها بمفردها فى البيت . . .

وتشاغلت رتيبة مرة أخرى بعدّ أساورها وهى غاضة الطرف ، وقالت :

– وماذا فى ذلك ؟ . . . توكل على الله واذهب أنت . . . صحبتك السلامة .

وتناول طربوشه فى يده واتجه نحو الباب فى تثاقل وهو يقول من غير أن ينظر إلى أحد :

– . . . لتصبحا على خير .

وشيعته خالة بهانة بسلسلة من الدعوات الصالحات . . وشيعته رتيبة بابتسامة ذات مغزى إلى أن توارى هيكله هابطاً السلم . . .

ولم تلبث بهانة أن عادت من وداعه حاملة مصباح البترول بيد ، وبيدها الأخرى تلطم فمها وذقنها بخفة وتقلب عينيها العشواءين وتقول :

– يعطى الحلق لمن بلا ودان . . . ويعطى زينة الرجال لأتعس النسوان . . . وربى يا خايبة للغايبة . . .

ثم جلست تحت أقدام رتيبة ، وراحت تثرثر طويلاً عن فصول نجية مع «حبيبتى الغالية ستى» ألف سلامة لها إن شاء الله ! . . . وكيف حرمت بيت ابنها على نفسها كراهة لسحنتها المقلوبة وقلبها الأسود ولسانها الطويل . . ! وكيف أن «ابن سيدى» ضعيف أمامها جداً . كأنه عبد أسير . . . !

وهزت رتيبة رأسها طويلاً ؛ فهى لا يعجبها فى المرأة أن تسيطر ، ولا يعجبها فى الرجل أن يتضاءل . . . وحتى لو ضؤل فى امرأة هذه التى تتطاول لتركبه هذا الركوب البغيض الذى يهدر احتشام الأنوثة ؟ . . .

وتذكرت زوجها وتطامنها له ، وتملكها زهو واعتداد . . .

دقن السيسى

تدفقت الأحاديث موهناً من الليل إلى أن خفت وطأة الحذر عن المريضة ، فأخذت تئن وتتفزز ، وتلاحقت أنفاسها ، فهبت المرأتان فى ذعر وفزع ، وأسرعت بهانة بالموقد وطبق من الصاج فصبت فيه ماء ودفقت فيه ملعقة طافحة من صبغة الجاوى فى حين كانت رتيبة مشغولة بهدهدة الأم المكروبة ، تحتضنها حيناً ، وتربت على يديها حيناً آخر ، وترفع عينيها إلى السماء كأنها تستنجدها ، وتغمغم فى عصبية لهفانه :

– يا رب سترك . . . يا رب يا مطلع أنت أعلم . . انظر إلى لهفتى وحرقتى ودوختى على السكك . . . والطف بها يا أرحم الراحمين . . .

وما أتمت بهانة وضع الجاوى على النار حتى أسرعت إلى جانب سيدتها ، تبرجم وتحوقل على طريقتها الملسوعة التى تحشر فيها دائماً «ستى»

و «بنت ستى» . . . و «سالمة سلامة بإذن المولى» . .

وهدأت أنفاسها رويداً رويداً ، ولكن الرعشة انتابتها ولم تتركها كأن بها مس كهربا . وارتفعت حرارتها ارتفاعاً فاحشاً ، وأخذت تهذى بمقاطع غير مفهومة . فانساب الدمع على خدى رتيبة . وأخذت تلطم وجهها .

– يا حوستى . . . أغيثينى يا بهانة . . . يا من يأتينى بالدكتور؟

– سأذهب يا بنت ستى لأناديه . . . التليفون فى السراية . . .

– لا تتركينى وحدى معها وهى بهذه الحالة . . .

وأخذت تلطم وجهها وتضرب فمها وتولول :

– يا خيبتك يا امه ! . . . يا عديمة الولد يا امه ! . . . يقعد لك فى ولادك يا نجية يا بنت «مندوهة» زى ما حرمت أمى وحيدها بالحيا . . . !

– ما يجيش منه يا ستى ! منها لله . . . أخطف رجلى هَوَا لباب السراية وأنادى الغفير يشد التليفون للبيه الدكتور . . .

– ما تعوّقيش يا بهانة ! حوش يا رب ! يا حامى يا رب ! قوليلى بس أعمل إيه يا امه ! قوليلى أجيب لك إيه . . . ردى علىّ وريحى قلبى ! تشربى ؟

وحاولت أن تسقيها . ولكن الرعشة حالت دون ذلك . فوضعت الكوب من يدها وراحت تمسح العرق عن جبينها بطرف الملاءة . . . ودخلت عليها بهانة تتعثر من كثرة الجرى حتى تلاحقت أنفاسها !

– زمانه جاى يا بنت ستى . . . ما تخافيش . . . يا أرحم الراحمين يا رب ! خمس دقائق يكون هنا البك الدكتور بالكومبيل .

وأسرعت إلى المطبخ فعادت منه بطبق فيه مزيج من خل وكحول أحمر ، ورشت عليه مسحوق الفلفل الأسود ، وتناولت خرقة جعلت منها كمّادة تبللها من السائل وتضعها على رأس المريضة .

– تلقط النارية من نافوخها بإذن الله ! ربنا يقدم الطبيب !

وأخذت وهى تضع الكمادة على رأس المريضة تمسح على وجهها وتتلو رقية «عاشوراء» ، وتتشفع بفاطمة الزهراء والحسن والحسين وسائر أهل البيت المطهرين . . .

وبعد هنيهة أخرى علت أنفاس المريضة ، ولهثت بصوت أقرب إلى الشخير ، فجحظت عينا رتيبة وصرخت مروعة ، وفتحت المريضة عينيها الزائغتين ، وأخذت أصابعها تجذب الثياب من حول طوقها كأنها تريد أن تنضوها عنها أو تمزقها ، فريعت رتيبة ولطمت خديها :

– يا خسارتك يا امه ! يا حبيبتى يا امه . . . ! فين انت يا شوق تشوف أمك فى ساعة الندم والعدم يا حيلة العمر !

وسمعت على السلم أصوات أقدام مسرعة . . . واندفع الدكتور زكى فى بيجامة عليها روب كحلى من الصوف ، فاستقبلته رتيبة فى وسط الحجرة باللطم والصراخ :

– ما خلاص يا دكتور . . . عليه العوض يا دكتور . . . يا خسارتك يا امه ! وتهون عليك أم شوق يا دكتور . . .

ولم يلق إليها بالا ، بل انقض على المريضة وانهمك فى فحصها بسرعة . ثم نادى بأعلى صوته :

– الخيمة يا إبراهيم ! بسرعة !

فدخل الحجرة على عجل رجل يحمل شيئاً أشبه بالناموسية ووراءه كرة كبيرة من المطاط الأحمر . . . وانهمك معها الطبيب فى تركيب الخيمة على فراش المريضة ، وبدأ فى تشغيل جهاز الأكسجين . . .

وفى تلك الأثناء كان هدوء الطبيب ، وطابع الجد الذى بدا فوق محياه ، وتلك العملية الغريبة التى قام بها مع المساعدين – قد سلبت رتيبة هستيريتها ، فسكتت عن الصراخ وانصرفت إلى مراقبة ما يحدث ، ولكن الدموع الصامتة لا تكف عن الانسياب على وجنتيها المحمرتين باللطم ، والنحيب يعلو بصدرها ويهبط ، ودقنها البارز المدبب يرتعد مع شفتيها . . .

واستقر عمل الجهاز وانتظم ، فأمر الدكتور زكى مساعديه المجلببين بالخروج من الحجرة ، وأمر بهانة أن تعد لهما مكاناً فى المطبخ يستريحان فيه ، ليكونا على كثب منه لتلبية أول إشارة .

وما غادروا الحجرة ، حتى اندفعت نحوه رتيبة حيث وقف يرقب تطور الحالة . ووضعت يديها على مقدم ذراعه الأيمن ضارعة :

– حتخف والنبى ؟ . . .

فرفع إليها عينيه بنظرة تمتزج فيها الدعابة بالزجر والتقريع ، وقال :

– هو هوه ! هى الشعنونة تتنتها شعنونة على طول ! ؟

فلاحت على شفتيها ابتسامة زادت بها رعشة شفتيها وذقنها المدبب كالكمثرى ، فمط شفته السفلى ، ولمعت عيناه ، ومد إصبعه فضرب به ذقنها وهتف ساخراً :

– دقن السيسى ! هى بعينها بتاعة زمان !

ونظر وقد دار بوجهه إلى قفاها كمن يبحث عن شيء بكل جد واهتمام ، وظهرت على وجهه الدهشة وحملق بعينيه وصاح :

– عجيبة ! راحت فين الزعرورة بتاعة زمان ! آه لو كنت لقيتها . . . كنت ماكدبتش خبر . . .

وألصق لسانه بسقف حلقه وأطلق منه طقطقة كالتى يطلقها الحوذيون لحث الخيول على الإسراع فى السير :

– كنت مسكتها «سرع» ، ولفيت وراك الدار زى زمان . . .

فعضت على شفتها حتى لا تضحك واستحيت وقالت له بعتاب :

– يا خويا . . .

كأنها تقول له وهل هذا وقته ؟

– إحنا فى إيه والا فى إيه . . . !

– عدم المؤاخذة . . . لا يخفاك أخوك زكى طول عمره هايف !

– ورحمة أمك يا دكتور . والنبى . . . تقول لى . . . حتخف !

فأشار بسبابته إلى المريضة داخل الخيمة وقال وهو يبتسم فى طمأنينة :

– انظرى بعينيك . . . ها هو ذا وجهها قد ارتدت إليه الحمرة ، ونفسها قد انتظم . . . وبكره تبقى عال . . . بس اهدئى انت . . . ودعى هذه الشعنتة وهاتى عدة القهوة واصنعى لى هنا أمامى فنجانا مضبوطا . . .

البساط أحمدى

وصدعت رتيبة بأمر زكى فى اهتمام ، فجمعت كنكة القهوة والفناجين و « مجمع » البن والسكر العتيق ، ورأتها بهانة تفعل ذلك ، فبادرت تستبقها إلى أداء ذلك العمل عنها ، على مأثور عادتها . فردتها رتيبة فى لطف وحزم . ولمحت العجوز على فم السيدة الشابة المحزونة شبح ابتسامة توشك أن تنطلق ، فقالت :

– أذهب الله همك ، وأضحك سنك . . .

فانفجرت أساريرها باسمة يكاد ابتسامها يعربد فى ضحكة ذات جرس :

– هَمّ يضحك وهَم يبكى يا خاله بهانة . . .

– بعيد عنك الهم يا نظر خالتك بهانة يا بنت ستى . . .

– ما تغير الدكتور زكى ، وقد وخط الشيب فوديه ؟ هو هو بشقوته وعبثه الذى لا يبالى حرجاً ولا يقيم لشئ وزناً . . .

– نفسه حلوة يا بنت ستى . . . ترابى ! لكن فى يده الشفا . . .

فكّر الجد ملامح رتيبة . وقالت بصدق وحماسة :

– فى يده السحر . . . الحق حق . . . نفسها هدأ . . . وردت فيها الروح . . . ربنا يتمم جميله .

وحملت رتيبة الصينية النحاسية اللامعة وأسرعت إلى الحجرة ، فوجدت (زكى) قد اقتعد الأرض على فراء كبش أحمر ، وأسند ظهره إلى الأريكة ، وربع رجليه . فوقفت عند العتبة ، ولم تملك نفسها أن انفجرت ضاحكة . وضحكت عيناه ، ولكنه عقد حاجبيه كالمقطب ، ومط شفته السفلى كالمستنكر . فقالت وهى تغالب الضحك :

– كفى الله الشر ! إيه اللى قعدك القعدة دى يا دكتور . . .

فأشار إلى ركبتيه وقال :

– هاتان . . .

ثم إلى مؤخرته وقال بلهجة رسمية كأنه يقدم شخصية فى سهرة :

– وهذه ! . . . والبساط أحمدى !

فاشتد عليها الضحك ، واهتزت فى يدها الصينية ، فقال لها وهو يجذب وسادة من وسائد الأريكة فيضعها أمامه على الأرض ويسويها بيده :

– هاتى هنا هاتى . . . واقعدى على الأرض قبالى . . .

يا مصراوية ! من فات قديمه تاه . . . !

فوضعت الصينية على الوسادة ، وتربعت قبالته وقالت وهى تشعل موقد الكحول :

– مصراوية إيه بأه . . . يا وارد بلاد بره يا أوربّاوى . . . آه لو شافوك العيانين قاعد القعدة دى . . . . !

فأشار بكفه مشيحاً كالمتفاخر :

– حيلك . . . ! وباقعد قبالهم دى القعدة . واكسر فحل البصل . . . أدشه بإيدى دى دش . . . وأخم فيه خم . . . . قولى يا باسط . . . واللى مش عاجبه يداويه اللى بيتربع على المسطبة . . . يدور له على حكيم بكرسى قلاووظ . . . إيّاكش السر فى القلاووظ . . . ! واللّا يكونش عقلك صدأ فى مصر . يا بنت يا رتيبة ! . . .

فألح عليها الضحك . . . فزجرها ولكزها فى ذراعها . . .

– خيبتك خمارى ! اصحى يا بت للقهوة حتفور منك . . . جاك خابط !

فأسرعت تنزل القهوة وتصبها فى الفناجين ، فارتعدت يدها من اهتزاز الضحك ، فتناولها منها ، وصبها بيد ثابتة . . . . وقال بكل جد وخشوع :

– فلتشرب مولاتى هنيئاً من يد عبدها الخاضع !

فرشقته بنظرة بين العتاب والسرور والاستلطاف المفرط . فصاح بها :

– قوليها ولا تخافى . . . «يا بن الكلب ! اطلع من دول ! »

– لا تجوز عليه إلا الرحمة . كان راجل طيب . . .

فتخشع بصورة تهكمية ، ورفع كتفه إلى السماء وقال :

– الفاتحة لروح أبو زعبوط . . . يخرج من ظهر العالم فاسق . . .

فوجدت نفسها تقرصه فى يده الممدودة إلى السماء وتقول :

– أما تتورع عن حرمة ! أما ترعوى وتكبر وقد وخط الشيب رأسك وصرت طبيباً ملء الدنيا . . . ؟

– ما زادنى الشيب والحمد لله إلا عيباً . . . اللهم أمتنى ضاحكاً مازحاً مهزاراً . . .

ورفع عينيه إلى السماء فى ضراعة ، ثم تناول الفنجان فرشف منه . فرشفت من فنجانها وهى لا تحول بصرها عنه . . . فرمقها من طرف عينه بنظرة أضحكتها ، فانتثرت القهوة من فمها على ثيابه وثيابها ، فصاح :

– هذه آخرة خدمة الفجر يا زكى . . . أهذه هى الكسوة التى كسوتنى إياها بعد غيبة السنين الطويلة ! . . . نهايته . . . خذى . . .

وصب لها فنجاناً آخر . . . تناولته وهى تحاول كف الضحك ، وتمسح الدموع من عينيها وتقول :

– اللهم اجعله خيراً يا رب . . . اللهم اجعله خيراً . . .

فحملق فيها وصاح :

– ما هذا يا مصراوية يا بنت الأكابر ؟ . . . أتظنين السماء تغار من ضحكنا ! أتظنينها «غاوية نكد» ؟ اضحكى ولا تبالى . . . هذه هى

ديانتى وفلسفتى وحياتى . . . !

ووقف وهو يكلمها ، ومال على المريضة يفحصها بنظره ، ثم جس نبضها ونظر فى ساعة معصمه بعده ، ونظرت رتيبة إلى وجهه فلم تجد لذلك الهذر أثرا ، بل رأت الجد كاملا . . . كأنه زكى آخر غير الذى كان يمازحها منذ لحظة واحدة . . . زكى آخر يوحى بالثقة وينطق بالكفاية . فأخذها العجب منه ، ثم رأته يتحول إلى حقيبته فيستخرج منها وعاء للحقن ، ويشعل موقد الكحول ، ويضعه عليه وهو يدندن . فسألته فى قلق :

– أبها شىء . . ؟

– أبدا . . . لها سبعة أرواح . . .

– اخص عليك . . .

– شىء بارد ؟ العيب من أهل العيب . . . مش عيب . . . ألست مزبلحا . . . ؟

فقالت :

– قلبك أبيض . . . بس لسانك . . .

– زفر . . . قوليها ولا تخافى . . . الحلو ما يكملش . . .

ونظر إلى مرآة الدولاب ولعّب لصورته حاجبيه . . . ثم التفت للحقنة وأخذ يعدها ، وهو يقول :

– سأعطيها هذه فتنام نوماً جميلا . . . كالملائكة . . ونرفع الخيمة عنها . . .

وبيد ثابتة حقنها فى الوريد . . . وأخذ يعد نبضها بعد ذلك ، وفحص صدرها وتنفسها بالمسماع ، وظهر عليه الارتياح ، وصافح بيمناه يسراه بكل حرارة وهتف :

-- والله براوه عليك . . . ! والله فلحت يا بن أبو زعبوط !

فوضعت رتيبة كفها على فمها لتخفى الابتسام وقالت :

– تسلم إيدك . . . ويحميك ، ويبارك لك . . .

فمسح بيده دموعاً وهمية ، وارتعشت شفتاه فى تهكم وقال :

– شىء مؤثر . . . ! جبتى البلاغة دى كلها منين . . . أموت نفسى يا عالم ! . .

وجذب شعر رأسه بيديه ، ودارت عيناه فى الحجرة ، فانفجرت ضاحكة . فأقبل نحوها ووضع يديه فى خصره وقال وهو يثبت فيها عينيه :

- والآن ياست البنات : جاء دورك لتخدمك يدى كما خدمت أمك من قبل ومن بعد . . .

فتقهقرت إليه مستغربة ، فبسط لها كفه ، وفيها حبة حمراء وقال بلهجة خطابية يوسف وهبية :

– بهذه ستلحقين بأمك فى وادى الكرى ، حيث تنعمين بأسعد الأحلام ، بدون كلام . . . !

فدقت صدرها بيدها وهتفت :

– أنام ؟ وهذه من يسهر عليها ؟

وأشارت بيدها إلى أمها المريضة . . .

فكسر عينه اليمنى وقال لها بتهكم :

– والنبى إيه ؟ بأه تسهرى ؟ ورايحه كده ما شاء الله تعدلى المايل بسهرك ؟ ولما انت تسهرى يبقى العبد الفقير لازمته إيه ؟ فضيها سيرة أيتها الأميرة . . . واطمنى – أنا قدها وقدود . .

فهزت رأسها سلبا بإصرار ، فهز رأسه إيجابا بإصرار ، ورأت على وجهه علائم الجد التى تلازمه حين يقوم بالفحص وينهض بالعلاج ، فقالت فى احتجاج كمن تدفع شيئا لا قبل لها به :

– قلبى ما يجينيش ! مستحيل . . .

– قلبك لا دخل له فى الموضوع . هذه مسألة طب وهذا أمر وليس رجاء . أمك ستكون بحاجة لعافيتك كلها فى تمريضها الطويل ، وليس فى مصلحتها أبدا أن ترهق نفسك لوجه الله – أو لوجه الشيطان الرجيم – بالسهر وأنا موجود فعلا وساهر فعلا ، وسهرى نافع لها من غير سهرك . . . حتى لا ترقدى بجوارها حينما لا يكون بجوارها سواك . . . أم تظنين المسألة مقاوحة ومظاهرة . . . ابلعى !

ووجدت نفسها تبلع الحبة ووراءها جرعة ماء . . .

– والآن هيا يا طفلتى المطيعة إلى فراشك . . .

فظهرت عليها الحيرة ، ثم تذكرت أن الحجرة المجاورة بها أريكة إستامبولى ومقاعد طقم « الشيخ أحمد » المريحة ، ولها نافذة شرقية كبيرة تطل على الحقول . . . فقالت وهى تهم بالخروج :

– أعلم أنى لن أنام . ولكنى سأرقد هناك حتى لا تتكدر . . . وعند أول نقرة بإصبعك على الحائط الذى بيننا ستجدنى أمامك . . .

– يا حفيظ ! . . . بل ستنامين يا محترمة . . . فالحبة ذات مفعول جبار ، والآن تصبحى على خير . وسأضطجع أنا على هذه الأريكة . . .

ومد إليها يده مسلما ، فصافحته ، فرفع يده إلى فمها وقال بتوقر :

– الطعى إيد عمك يا بت . . . واسأليه الدعوات !

فضحكت واحمر وجهها ولم تفعل ، فهز رأسه مستنكراً وهو يسترد يده :

– عليه العوض ومنه العوض ! جيل خسع . . . عديم الأخلاق !

وغادرت الحجرة وهى تضحك ، بعد أن ألقت نظرة على أمها وهى تقول :

– لما أشوف أنا بأه والـلا البنوعة بتاعتك الليلة دى . . .

الأميرة النائمة

ألمت رتيبة بدورة المياه، ثم أخذت من المطبخ مصباحاً صغيراً، ووجدت بهانة نائمة تغط فى رتابة ، فهزتها حتى أيقظتها وصحبتها إلى تلك الحجرة الصغيرة المجاورة لحجرة أمها ، وهناك أمرتها أن تنام على الأرض ، ورقدت هى على الأريكة . . .

وهكذا وجدت نفسها فجأة وقد خلت إلى نفسها تماماً بعد أحداث ذلك النهار العجيبة . فأذهلتها تلك الدوامة . وأذهلها فوق ذهول ما اكتنف جو تلك الأحداث من مفارقة لا تكاد تصدقها وهى تسترجعها ، لولا أنها لم تغادر جوها إلا منذ لحة .

أمها توشك أن تزفر زفرتها الأخيرة . . . لولا هذا الرجل . . . رجل ؟ . . .

إنها لتحملق فى الظلام دهشة لأمره وأمرها . . . لأنها لم تلتفت إلى أنه «رجل» طيلة تلك المدة !

ووَجدت نفسها تجمع قب ثوبها حول عنقها فى استحياء ، كما تفعل أمام الرجال الغرباء ، وأخذتها قشعريرة خزى . كيف لم تتستر أمامه ، ولم تغط رأسها ، ولم تصلح من زينتها ، ولم تحتشم فى القول . . . ؟

ولم تلبث أن هونت على نفسها . فما هو برجل ، ذلك المهرج المهذار . . .

إنه ما أشعرها أنه رجل ، ولا ذكرها أنها امرأة ! فما كان يستحق أقل من هذه الاستهانة به فى الحديث والإشارة . وهو المستهين بنفسه وبالدنيا وبكل شىء . . . !

وتوقفت لحظة .

أهو حقًّا مستهين بكل شىء ؟ وهذا العناء كله من أجل أمها ؟ وهذا الجد كله الذى ينطق به كيانه بأسره وهو يفحص ويعالج ؟ وهذه الشهرة التى فشت فى جميع الألسنة بما يتجشمه فى الطب لمرضاه ، وسوادهم من صغار القوم لا يملكون له جزاء ولا أجراً . . .

وأخذتها حيرة أشبه بالوجل أو الرهبة . . . وهو شىء لم يخطر ببالها قط أنها ستحسه من نحوه ، وهى تصغى إلى أفانين هذره . . .

قطعاً ! ليس زكى ذلك الهزأة الذى يبدو من ظاهر قوله وهذره . وليس الماجن الذى يتراءى مستهيناً لاهياً . . . إن فيه لسرًّا خفيا ، لا يبدو وهو ماثل ، ولكنه يتراءى حين يغيب . فهو شهم لاشك ! قوى

لا شك ! فيه نخوة للملمات وهمّة . . . بيد أنه يحرص أن يهون من كل ما يفعل ؛ حتى ليبدو فى عين الناس وكأنه لهو وتفاهة . . .

وقطبت حاجبيها هنيهة ، وهى تكاد تلمح السر الكامن وراء هذه النفس البسيطة خلف قناع التمثيل . . .

إنه خجول ! خجول لأنه نبيل ! يخجل أن يبدو نبله ، فيجشم الناس احترامه ويركب أعناقهم دينهم لفضله . . فيؤثر أن يصطنع الهذر ، والتفاهة ، والاستهانة . . . كى يرفع عن الناس ما فى المعروف من حرج ، بل ما فيه من مذلة . . .

وتصورت سواه يصنع بعض صنيعه ، وكيف يتدلل ويمن ، أين كان مجلسها حريًّا أن يكون منه ؟

عند قدميه ولا محالة ! وكانت تحتد كيف توفيه الشكران ، وكان يتقبله منها فى (تنازل) يزيدها حيرة وضآلة وحرجاً . . . !

وهالها غباؤها . وبلادة حسها . وأنها كانت ألعوبة هذا الرجل إلى هذا الحد . ما ظنه بها الآن ؟ إنها طفلة ! إنها بلهاء ! إنها غريرة ! . . .

ما أقوى أعصابه ! لقد استطاع أن ينقلها من الفزع والجزع إلى الطمأنينة ، كأن أمها فى غفوة سبات ، بل نقلها إلى الطفولة اللاهية عن كل هم ومشقة . . .

ما أنبله ! وما أبرعه ! لم يكفه أن ينقذ الأم ، بل أبى إلا أن يحمل العبء والسهر والقلق وحده ، ثم أرسلها لتنام كأنها طفلة لا شأن لها بهموم الكبار !

ياله من رجل ! . .

ورنت كلمة الرجل فى ذهنها مرة أخرى رنة الغرابة . . . كيف لم يشعرها وكيف لم تشعر أنه رجل طيلة مكثها معه ؟

وتراءت لها صورة « الرجل » كما رسخت فى سريرتها فإذا هى من « الصنم » قريب من قريب .

وقار أو تزمت ، ورزين ينبعث من جميع حركاته وسكناته ! للسعلة رزين ، ولوقع القدم رزين . وللنظرة رزين . إنه رزين السمت ، رزين تأكيد الذات ، رزين الدعوة الى التمجيد . . . !

أما « هذا » فعلى النقيض من ذلك كله : لا رزين ولا دعوة إلى التمجيد ولا وقار ولا تزمت ، بل هروب من المظهريات كلها إلى التمويه بعكسها فى نية صادقة وبراعة لا تتأتى لغير المخلصين !

وهذا هو السر الخفى الذى جعلها لا ترى فيه رجلاً ، ولا تحتشم منه ، ولا تتبرج له . . .

وتحسست وجهها وشعرها . . .

ماذا يقول عنها الآن ؟ وكيف تراها بدت فى عينيه بهذه المباذل وعلى غير نسق من زينة أو هندام ، وهو الذى لم يرها منذ زمن بعيد ؟ . . .

ونال منها أنها لم تكن على ما تشتهى وإن كان المقام لا يسمح ، ومع هذا فمن يدرى ماذا كان يفعل أو يقول لو بدت له فى زينتها ؟ إنه مخلوق غريب ! . . لقد أمسك ذقنها وقال لها : « دقن السيسى دقن الفار . دقن محمد النجار » ! كما كان يفعل وهما صغيران ، وبحث عن ضفيرتها وراء

ظهرها يقودها منها كاللجام !

وراودها الضحك ، فى شىء من خيبة الأمل . . . فلا أمل مطلقاً أن يغدو هذا المخلوق رجلاً تشعر أمامه بشعور النساء . . .

وتنهدت بارتياح ، فذلك أيسر على نفسها وضميرها . وحمدت الله وأخذت تفكر قليلاً فى بيتها وزوجها وابنتها ، وعرجت أيضاً على أخيها شوقى ونجية ، ثم استأثر بها النعاس . . .

ورأت فى منامها أحلاماً متداخلة مضطربة . وكانت معظم الوقت كأنها فى تيه من المسالك والدروب لا تستطيع الخروج منه . . . إلى أن نبهها طرق كأنه ضرب المطارق فى دماغها ، ففتحت عينيها فى تثاقل ، لتجد نور الشمس يملأ الحجرة ، وباب الحجرة يطرقه طارق ، فقفزت من الأريكة مروعة ، ولم تجد بهانة على الأرض ، وفتحت الباب لتجد (زكى) يصيح بها معاتباً :

– ناموسيتك كحلى ، ياست هانم ، كفايه نوم بأه ، وسلفينى شوية إياك أخطف لى تعسيلة . . .

ودخل فارتمى على الأريكة ، ورآها واقفة فى مكانها مأخوذة فصاح : – مالك – كفى الله الشر؟ نايمة للضحى العالى ٢٤ قيراط . . . إيه اللى ناقص كمان ؟

وضرب رأسه بيده فجأة كمن تذكر شيئاً :

– آه ! طبعاً طبعاً ! الأميرة المسحورة كانت نايمة ، وطبعاً بتحلم بفارس على فرس أبيض زى اللبن يخطفها على حصانه ، ويحط ديله فى

أسنانه ، وعلى مملكة أبوه سلطان الجان . . . وكان ياما كان . . . وهف طلع النهار . . . ياحسرة ! حكيم كحيان ، دقنه طويلة ، وحالته عبرة . . . ! عدم المؤاخذة ياست رتيبة . ، الموجود ! ماكانش ينعز ! خدى الباب فى إيدك ياضنايا ، واغسلى وشك ، وافطرى . وخدى شعرتين من رأسى . . . إن عزتينى طقطقيهم تلاقينى قدامك . . . وإن ما نفعش تعالى ارفسينى وقولى فى قوم فز . . فزك قرد . . آجى قايم على طول . . . جنس واطى . مايحيش بالذوق !

وغطى رأسه بالملاءة . وأدار وجهه للحائط . . . فخرجت رتيبه وأغلقت الباب . . . ووجدت بهانة جالسة على الأرض ورأسها يبتز من النعاس . وأمها نائمة منتظمة الأنفاس ، فلمست رأس بهانة . فانتفضت قائمة ، وقالت بحماسة :

– ربنا يخبك يابنت ستى اللى نزل عينيكى النوم . . . سيدى البك الدكتور صحانى ياستى . وعلى رجل واحدة للصبح . . . نغلى فى حقن . . . أعطاها يابنت ستى بيجى ٨ حقن لما بأه العدوين يصب العرق كده . . . ولم سابها أبداً إلا لما نفسها هدى ونامت . قعد جارها برضك . ويجس إيدها ورأسها ، ويبص فى الساعة . وينقط هادورا . . . على دى الحال للصباح . . . حتى إنه قال : الحمدلله . . . قدر ولطف . . .

هذا إذن ماحدث . . . وهو لم يشر إلى شيء منه إطلاقاً ، ولم يجد لساناً إلا للحديث عن الأميرة النائمة ، وسلطان الجان . . . كأنه كان ساهراً عند كشكش بيه ! إنه لعجيب !

النافذة المفتوحة

وانقضت بعد تلك الليلة أيام عصيبة لم تدرك فيها رتيبة من الراحة والنوم إلا أقل القليل ، وكان زكى على تردده الدائم بين عيادته فى البندر ودار المريضة لا تراه رتيبة إلا هاشًّا ضاحكاً مهوناً من الأمر ، فينسيها ما تحسه من الإشفاق والخوف ، ويبث فى نفسها الطمأنينة والثقة .

وكانت المريضة قد تنبهت من غيبوبتها ، وبدأت تئن وتكثر من التوجع ، وتلح فى مطالب صغيرة غير مفهومة ، ولا ترى زكى حتى تدعو له بحرارة ، وتتندى عيناها بالدموع . ولا تنسى أن تشفع باسمه فى الدعاء اسم ابنها شوقى ، وكان شوقى يلم بالدار سحابة النهار ، ويقضى جل وقته نائماً ، فترمقه أخته فى ازدراء ، وتسأله أو تسأل نفسها : هل عليه فضلة

نوم ! . . فترميها أمها بنظر ملام ، وتلوح بظاهر كفها فى إعراض وإغضاء وتقول لها :

– أخوك قليل البخت يارتيبة . . . غلبان . ربنا يصلح له الحال . . .

فترم رتيبة شفتيها فى امتعاض وتقول :

– امرأة هو حتى يخيب بخته ويميل حاله ؟ انقلبت والله الآية .

ثم تسكت على مضض ، أو يشغلها شاغل من خدمة أمها . . .

وألح الإمساك على المريضة ، فوصف لها زكى دواء . . . وكانت لا تقدر على النهوض ، فأتاها من عيادته بقصرية سرير ، . ولكن المرأة الريفية العجوز لم تتعودها ، وأبت أن تستقر فوقها ، وصرخت متألمة ، فرفعت رتيبة – وكانت تعينها بهانة – الإناء من تحتها ، وما فعلتا حتى انطلق المحبوس فى جوفها على الحشية والأغطية وكانت له رائحة الجيف ، فاستشاطت رتيبة غضباً ، وانفلت زمام أعصابها وهى التى انهمكت فى السهر والتمريض والخدمة ، فصاحت تنهر أمها مغيظة ، وإذا الباب يفتح ويتسلل منه زكى . ما الخبر ؟ وأدرك الموقف على الفور ، ورأى المريضة تكاد تموت خزياً ، فأزاح رتيبة من موضعها وقال لها بحزم وترفق أن تشغل نفسها بإعداد الأريكة ، وإحضار الماء الدافئ ؛ وقام بنفسه فى صبر ورقة وعناية بتنظيف جسم العجوز وهو يهون عليها باللفظ اللين والنظرة الضاحكة ، وكأنه يقوم بتمرين من تمارس الألعاب السحرية أمام جمهور من النظارة فى سهرة مرحة !

وتولى بعد ذلك رفعها على يديه كالدمية ، فأرقدها على الأريكة وغطاها ، وترك لبهانة أن ترفع على عجل أدوات الفراش التالفة . وجذبت العجوز فى غفلة منه يده فقبلتها وانفجرت باكية . . .

ولم يحتمل زكى الموقف فانتفض واقفاً وخرج من الحجرة . ولم تره رتيبة قبل تلك اللحظة مضطرباً متأثراً . رأته يمسح جبينه بمنديله ، وقد تصلب عنقه إلى الوراء كمن يغالب رعدة جوانحه وهمهم :

– ما أهون شأن بنى آدم !

ولم تجبه رتيبة بشىء لأنها كانت موزعة الخاطر بين السخط على نفسها لما أفلت من زمامها ، وبين الحزى مما أقدم عليه هذا الإنسان من الرحمة والبر بأمها المسكينة ، حيث قصرت هى ، وتقززت وأساءت !

وارتجفت من الاضطراب ، فارتعد ذقنها ، فقفزت الضحكة إلى عينيه وهتف :

– والله زمان !

ودفع بسبابته فى ذقنها ، فانفجرت ضاحكة وباكية فى نفس واحد ، فقال :

– أحسن !

ثم انفلت منصرفاً يهبط السلم درجتين درجتين ، فاتجهت إلى النافذة تزعم لنفسها أنها تريد أن تشرب من القلة الحمراء هناك لترطب حلقها وتذهب عبرتها ، واختلست نظرة إلى الطريق ؛ لتراه منطلقاً بسيارته إلى المدينة ، ثم لبثت بعد أن غاب عن نظرها تحملق فى الحقول الممتدة إلى

الأفق البعيد ، وضوء الشمس يجلوها صارخة الألوان ساكنة تحت الوهج ، وأريجها الدافئ الهادئ يفوح فى كل اتجاه .

وملأت صدرها من الهواء ، وأحست طمأنينة وهدوءاً وصفاء وثقة تملأ جوانحها كأنها بعض ذلك النبت الباثق من طينة الأرض ، أو بعض ذلك الأرج الذى تفتقه الشمس عن أعواد الزرع . أحست اكتمالاً لا تشوبه رغبة ، ولا تنقصه حاجة ، ولا تثلمه سلطة !

أمها على قيد خطوة أخرى منها فى الحجرة الأخرى ، ولكنها لا تحس مسئوليتها عنها عبئاً على سريرتها وسائر ما يكبلها من فروض وصلات ومسئوليات هنا وهناك . كل ذلك لا تحسه هذه اللحظة قيداً على وجودها وقد ارتد إلى الطبيعة ، فإذا هى ذات منطلقة مستقلة ، ومن الانطلاق والاستقلال هذا الأمن المطمئن وسكينة النفس . . .

وفى هدوء قرير ارتدت عن النافذة واتجهت إلى حجرة أمها ، فأقبلت عليها تسرى عنها ، وكانت بهانة قد سقتها جرعة من شراب الليمون وأخذت تهون عليها ، ولكنها كانت تخشى أن يكون أمرها ثقل على ابنتها ، فلما عادت إليها ابنتها ولاطفتها اطمأنت وقالت كالمعتذرة :

– والرجل الطيب الذى ما كان ينقصه من همى إلا هذا . . . واخجلى !

فبادرت رتيبة تنفى فى حماس شديد أن زكى كره منها شيئاً ، وتؤكد لها أنه لا ينطوى على مضاضة منها على الإطلاق . . .

« الحق . . . كله إلا زكى . . . لا عليك منه . . » فأمنت المرأة

على قولة ابنتها فى خفوت الإجهاد :

– صحيح كل الناس ولا زكى . . . إلهى يخليه ، وينجيه . . . هو وشوق . . .

ثم رنقت عيناها للنوم ، وانصرفت رتيبة إلى الحجرة الأخرى ، حيث النافذة المفتوحة والقفة الحمراء وأريكة نومها ، فاضطجعت تلتمس شيئاً من الراحة أوسنة من نعاس . . .

وتذكرت ما كان منذ هنيهة حين دافعت عن زكى هذا الدفاع الحار ، وأوشكت أن تجد فى تلك الحماسة تزيداً لولا أنها الحقيقة صدرت عنها عفو اللحظة ، الحقيقية التى لا تجد فيها حيلة ولا تحس امتراء أو ريبة . . . إن زكى غير سائر الناس ما إلى الشك فى ذلك سبيل . الإنسان فيه غيره فى الناس كافة . غيره فى الرجال ، بل غيره فيها . ولا حيلة لها فى نقض ذلك الإيمان أو دفعه ، وقد قام عليه عندها ألف برهان . . .

وأحست لذلك الإيمان راحة وغبطة هدهدتها فنامت قريرة ولا تدرى كم من الوقت نامت إلى أن أيقظها ذراع يحيط عنقها وخد يلتصق بخدها ، ففتحت عينيها مجفلة مفزعة . لتجد ابنتها حورية تعانقها . . . وأوشكت تحسب نفسها فى حلم لولا دخول « سى عز الدين » عليها فى معطف السفر الأصفر ، فنهضت تستقبل القادمين فى فرح وشوق استحدثه اللقاء المفاجئ .

الطائر الصادى

لم تشعر حورية بألم عميق لمرض جدتها . وإنما كان ما شعرت به على الأرجح شيئاً أقرب إلى النفور والتقزز والاستطلاع الذى خالطه أسى ، ثم لم يلبث مع الوقت أن انقلب استطلاعاً مجرداً أصابه بالتدريج فتور لم يلبث أن انقلب ضيقاً واضحاً ؛ فنشاط الحياة فى سنها التى تجمع بين الطفولة والصبا اليانع لا يدع لها سبيلاً للوقوف طويلاً أمام ضعف الشيخوخة ووهن المرض . وعنفوان كيانها ، الذى لم يجرب العلة والضنى المقعد ، لم يسمح لها بفهم وجدانى صحيح لتلك الظاهرة ، فانطلقت كما تنطلق القبرة المغردة المتوثبة فوق أفنان الدوحة التى تظلل المقبرة لا تعير الموت التفاتاً ؛ لأن حرارة الشمس وتدفق الحيوية استأثرا بوجدانها جميعاً . .

لم يستوقفها جلال الموت ولا رهبة الانحلال يدب فى البدن ، ولكن استوقفتها بل استثارتها دعوة الشباب والهوى : استوقفها زكى . . .

الثالثة عشرة وبضعة شهور لفتاة من طراز حورية مرحلة عجيبة طريفة من العمر . . . تستعجل فيها الفتاة خطوات الزمن ، وتتقمص ريعان العشرين ، أو جبروت الثلاثين ، وتنكر وتتنكر لطفولتها القريبة ، وتتطلع فى وثوق وإيمان ولدد إلى حقوق الأنوثة المكتملة ومتاعها العريض . . .

وزكى فى تدفقه الحى بالمرح وطفولته المتجددة بالبساطة والتفتح والانطلاق – بدا لعينيها متألقاً ، كما يتألق الجدول الجارى تحت ضوء الشمس لعينى عصفور أضناه الصدى فى حر الهجير وهو يضرب بجناحيه فى رحاب الفضاء . . . وعند الجدول المتألق دوحة ذات أفنان ينشد لديها الظل والوكر والثمر . . .

وما على الطائر الصادى أن يكون تحت الثرى الذى تظلله الدوحة ويربطه الجدول جدث طائر مهيض ، هو جده فيما قيل أوجدته حين تلتمس الأنساب ؟

* * *

أقبل مع العصر زكى يعود مريضته ، فما وقعت عيناه على حورية ، وقالت رتيبة له من هى حتى رفع ذراعيه أمام صدره باسطاً كفيه كمن يدفع عن نفسه خطراً داهماً ، وصاح كالمرتاع :

– أمان أمان يارتى أمان ! ماكل هذا الجمال !

وتضرج وجه حورية حتى حاكى حمرة طربوش خالها وأبيها ، وعربد

قلبها الفتى فى داخل صدرها . وكأنما هذه الكلمة كانت « لفظ السر » الذى يفتح له ذلك القلب ، كما يفتح الكهف المسحور حين يقال له « افتح ياسمسم » !

ولم يتركها فى خجلها وخدر نشوتها . بل مد يده فى جرأة وجذبها إليه . ووضع إصبع يده الأخرى تحت ذقنها ، ورفع وجهها إليه ، فازداد اضطرابها وغضت بصرها ، فانطلق زكى ضاحكاً وهو يقول لأمها :

– ماشاء الله ! عروسة فينو . . . وكيف تركوها تحضر من القاهرة وحدها ؟ ألم يخافوا عليها أن يخطفها العرسان ؟

فبلغ اضطرابها ودوار نشوتها غاية المدى ، وارتخت ركبتاها وذراعاها ، وغشيت جوارحها غاشية ، فلم يقع على سمعها إلا من خلال الضباب أو الحجاب السميك قول أمها لزكى كيف جاءت مع أبيها ، وإن « سى عز الدين » خرج من بعد الغذاء مع أخيها إلى المدينة ، وأردفت كالمعتذرة :

– الرجال كما تعلم لا يطيقون البيوت . . .

فمال زكى برأسه إلى كتفه اليمنى ، مع تصلب فى رقبته إلى الخلف ، ومط شفتيه وحملق فى حورية وقال بلهجته التى تخلط الجد بالمزاح :

– عن نفسى شخصياً أنا قتيل البيوت ، وسكان البيوت ، لا أفارقها ولو بالنبوت . . . !

وجرها من يدها وراءه وهو يدخل حجرة المريضة التى استقبلته بالدعاء اللاهث فى صوتها الواهن معبرة عن عجزها دون شكره ووفائه

بعض حقه ، فأشاح بيده الأخرى وقال كالغاضب :

– فُضك من الكلام ده أنا حاخد حقى بإيدى . . . وأشار بسبابته كالمتوعد المتحفز إلى حورية وقال :

– دى عروستى . . . واللاحسارة فىّ ؟

فضحكت الجدة فى وهن وهى أعرف الناس بمزاحه وقالت :

– وهى تطول ؟ جاريتك وخدامتك ! خدها من دى الساعة . . .

– استبينا . . ! الفاتحة !

ورفع وجهه إلى السقف ، وأغمض عينيه وتمتم كمن يتلو الفاتحة . ونظر حورية معلق به كالمبهورة ، وهى تحسب نفسها فى حلم مذهل ، وسرت البرودة فى أطرافها ، وتصببت عرقاً . وأمها من وراء ظهرها تغالب الضحك . . .

وقطع زكى تلاوته وحملق فى حورية كالمرتاع وصاح :

– ياخبر زى بعضه ؟ البنت تلجت من الخضة ! . . . معلهش الصبر طيب . . . شوية شوية . . .

وأطلق يدها ، وراح يعد بيمناه على أصابع يسراه :

– بكره أجيب لها حلويات وشكلاته ، وأفسحها معايا فى العربية ، وأوريها شطارتى وخفافتى وأبهتى لغاية ما ترضى بىّ . . .

ونظر إلى أمها وجدتها وقال وهو يمط شفته السفلى :

– اللى ما يعرفك يجهلك . لسّه مش عارفانى . . . بكره تعرف أن مفيش منى ولا فى الأنتكخانة ولا فى جنينة الحيوانات . . . !

ونظر إلى حورية المذهولة التى بدأ الضحك يغالبها فزادها احمراراً ، وقال :

– حاجة بسيطة جداً . . . عينة صغيرة تحت الحساب . بصّى ! شفتيش عمرك بنى آدم يلعب ودانه زى الحصان ؟ أنا ! بصى كويس !

وأخذ يحرك أذنيه من غير أن يتحرك حاجباه ، وخالسته النظر متعجبة ، وانفجرت أمها ضاحكة . . . فرشقها بنظرة قاسية وصاح بها مستنكراً :

– بتضحكى على إيه ! صحيح لاكرامة لنبى فى وطنه ! . . مفيش تقدير للمواهب فى البلد دى . . . علشان كده حنستنى متأخرين على طول . . . أتحداك ! هزى ولوودن واحدة كده من غير حواجبك ما تتحرك ؟ مستحيل ! بس زكى المصيت فى الأربعتاشر مديرية يقدر عليها ! نبوغ فطرى يا افندم !

وانصرف بعد ذلك إلى مريضته ريثما جاءت بهانة بالقهوة ، وشرب زكى فنجانه ، وحورية تخالسه النظر ، ولا تنطق بكلمة على غير ما تعهده نفسها . . . وقلب زكى الفنجان بعد أن احتساه .

– وادى كمان حاجة تانية . . . أشوف البخت فى الفنجان ، وأقرأ الكف ، وأفتح المندل . . . سبع صنايع . . ولسه بكره ياما تشوف من أبو الزيك اللى مش عاجبك ده . . . لحد ما تقولى ياريت اللى جرى ما كان . . . وعلى رأى المثل خطبوها اتعززت فاتوها اتندمت !

ورفع حاجبيه كالمتأمل وهو ينظر فى الفنجان وهز رأسه مراراً وقال :

– متاعب . عقبات . ولكن النجاح مضمون . . . وشمع قايد ، ونصرة ، وفرح بعد الزعل والدلال . . . وماله ؟ لا يأس مع الحياة !

ونهض منتصباً وبسط ذراعيه إلى الأمام ، وقد جمع قبضته ممثلاً العزيمة الصادقة على الكفاح وقد أطبق شفتيه وقطب حاجبيه . وبدا فى تلك اللحظة مديداً وسيماً . . . وعربد قلبها من جديد . . .

وانحنى كرقم اثنين وهو يسلم عليها متصنعاً الإجلال بكل جد ، فارتعدت يدها المثلوجة فى يده ، وطأطأت رأسها . . .

وكانت أمها قد روت لأبيها على مسمع منها أساطير شهامته وبراعته فى العناية بأمها ، وأطنبت فى مناقبه وكرم نفسه ، وهو السيد ابن السيد لأسرتها من قديم . . . ولكن ذلك كله لم يحدث فى نفسها أثراً ، لأن حياة جدتها نفسها لم تكن فى أعماق سريرتها ذات أثر يذكر ، أما الآن وقد راعها بوسامته كثيراً فقد تجمعت تلك المدائح التى كانت بغير مغزى ، وصارت كالهالة حول بهائه الساطع الذى برز من بين الغيوم فى أفق وجدانها فجأة . . .

فى الشرك

ولكنها هنا اليوم لا تريد أن تأكل . . .

شيء فى صدرها يريد أن يغنى ويرقص ، والدوار لا يدع رأسها الجميل يستقر كأنها أرجوحة شديدة الدوران جامحة الاهتزاز . والطبول الوحشية لا تكف لحظة عن إرسال دويها المتلاحق تتداخل رعداته فى جوانحها الساخنة . . .

آه ما أجمل الحياة ! . . .

أونسيت أن جدتها مريضة وأنهم هنا جميعاً لهذا السبب ؟ كلا ، لم تنس مرض جدتها ، ولكنها باركته !

ما أطيب هذه الجدة الصالحة ! صحيح قطعاً ما قيل لها مراراً عن صلاحها وتقواها وطيبتها الملائكية . . . فما حدث لها بسببها كرامة لا يقدر

عليها إلا الأولياء الصالحون ذوو الأسرار !

القاهرة على ترامى أطرافها واتساع أرجائها وزخورها بالفتيان ذوى النضارة والشبان ذوى البهاء ضاقت فلم يجد فيها قلبها مبتغاه ؛ لأن الحب كان على موعد معها ها هنا فى أقصى الأرض ، فى موضع قفر ، حيث لا يرجى افتتان ، ولا تنشده صبوة . . .

الحب ، أجل ، هذا هو الحب ، هو بعينه ذلك اللغز المجهول الذى عرفت اسمه قدماً وحارت فى كنهه . سألت عنه البلهاء أنصاف ، ولم يقنعها ما تراه لديها من الرجفات فى لحظات الوجد والهيان ، واستبعدت أن يكون هذا هو الحب ، استبعدت أن يقع لها مثل ذلك الاختلال الذى يوشك أن يشتبه بالخيال ؛ وكانت تزداد عقيدتها ببلاهة أنصاف بسبب ذلك الذى تراه من أعراض الحب عندها . . .

ولكنها الآن وصلت إلى اليقين الذى لا امتراء فيه ، لقد شكت فى أمر الحب حين بحثت عنه بعقلها ، فعجزت مقاييس العقل عن إدراكه بالبرهان ! أما وقد «وقع» الحب لها فلاشك فى الحب ولا ارتياب ؛ لأن معرفة القلب لا تفتقر إلى البرهان ، وها هنا قلب يدق بأقصى قوته ، يدق أجراسه جميعاً دقات العيد والمهرجان والنصر المؤزر المبين . . .

كم تطلعت فى المدينة الكبرى فى وجوه الفتيان . فلم يستجب لها مجيب ! وكم ناوشت القريب بعد القريب ففروا منها ، ولم ينظر إليها أحد إلا نظرة الخائف المستريب ولكن هنا . ها هنا فقط لم تسع إليه ، بل سعى إليها ! ولم تناوشه ، بل انقض عليها ، أخذها بهاؤه عنوة أخذ الواثق

من ذات يده وملك يمينه ، فقالها بلا تردد وبلا استئذان : تلك عروستى . . . !

بوركت الجدة وبورك مرضها وبوركت حياتها !

وأحست للجدة حبًا ولهفة وإعزازاً . . . فأعلنت عليها الحب كما أعلن عليها الحب بسببها ، وصارت تطيف بها حانية وتسمر معها وتكاد تدللها ، عسى أن تستروح منها حديثاً ينقع غلتها عن حبيبها وعريسها العتيد !

ولكن لا خير قطعاً فى العجائز ! السن ذهبت برونقهن وعقولهن أيضاً ! لم يفتح الله على الجدة إلا بحديث هو لا شك من بعض خرف الشيخوخة الواهنة !

تبسمت الخبيثة وقالت فى بشاشة مموهة :

– أضاع نفسه ! يشتاق اليوم الأبوة كلما رأى صبية ! ولوكان تزوج فى أوانه لكان أنجب مثلها . . .

فردت عليها العجوز الأخرى فى تواطؤ لا يكون إلا بين العجائز :

– من يدرى ؟ أليس أكبر من أخى شوقى ؟

– بلى ، أكبر منه ، ولولا تلك العقرب التى تزوجها أخوك لكانت له الآن بنات متزوجات وحفدة . . .

ولم تلق بالاً لحديث العقرب ؛ لأنها تصورت « العجوزين » عقربين تتآمران عليها بهذا الكلام المسموم ، تريدان لتوهماها أن حبيبها عجوز من سنهما وأنه أب لها لا قرين . . !

كلام !

أين من حديثها المدخول حديث قلبها الصريح القوى الأمين . . . !

هو والله حبيبى . . .

وقامت متكاسلة تتمطى ، وانصرفت من الحجرة تنشد خلوة عند النافذة حيث القلة الحمراء والأفق الواسع ، وقد جنحت الشمس للغروب وملأت أصداء العودة من الحقول جو الضيعة .

ورانت عليها وحشة وحنين . . .

متى يارب تتهدم الأسوار أمام نفير البطل الظافر ، فيأخذ الحب سبيله وينطلق إلى بعيد . . . إلى بعيد . . . حيث لا تسمع لغواً ولا ترى شيخوخة ولا غباء ولا لوماً !

واستهواها الأفق البعيد ، فسبحت بها خواطرها إليه . . .

سيكون لها بيت متألق كالجوهرة ، قصر أبيض ، فى بنيانه نقوش كقصور السراة فى القاهرة ، بل أبهى ! فهاهنا ستكون لى حديقة مترامية فيها الشجر المرتفع والثمر اليانع والزهر المونق الفواح والبستانى شيخ طيب يفيض وجهه بالنور ، وتومض عيناه بالطيبة ، ويلهج لسانه بالدعاء لى فى الغدو والرواح !

وستكون أوقاتى كلها فراغاً جميلاً . . . ما أجمل الفراغ ! أقطف الزهر ، وأتشمم العطر ، وأخطر بين الخمائل . . . وأصغى للبلابل وهى تغنى كلما اشتهيت الغناء ، وتصمت كلما أشرت لها بيدى أن تكف !

وعلى الشرفة أستلقى ويأتينى الخدم بالشاى الفاخر الذى حدثنى أبى

عنه حين حضر مأدبة ذات مرة فى سميراميس ، أو يأتونى بعصير الفواكه فى كئوس من البلور الرقيق . . .

وتوقفت حورية فجأة عند هذا الخاطر ، وقطبت حاجبيها وتساءلت برعونة : ألا يكون هذا هو نعيم الجنة التى وعد الله المتقين ؟

واهاً لى ! أين ذهب عقلى ؟ أليست جنة الحب هى هى جنة الفردوس ؟ كلتاهما لا لغو فيها ولا تأثيم ، وفى كلتيهما من النفس مائلة مواتية بلا لهفة ولا لوعة ولا حرمان . !

والحبيب . . الحبيب الغالى - يأتى فى سيارته فتقابله مفتوحة الذراعين ، وتنضو عنه ثوب التعب والعمل ، وتسند رأسه إلى صدرها ، وتمسح على جبينه وعلى شعره وعلى صدره ، فينسى التعب ويغفو وقلبها يهدهده على دقاته ، ويسهر عليه . . . إلى أن يفتح عينيه ، فيعانقها ويقبلها ، ثم يأخذها فى سيارته إلى نزهة ماتعة ، وقبل أن تركب معه السيارة سيقول لها :

- أغمضى عينيك يا حياتى !

وتغمض عينيها ويدق قلبها وهو يحيط عنقها من الخلف بشىء له مس بارد ، ثم تفتح عينيها ملهوفة تتطلع فى المرآة ، وتلمع عيناها لمعاناً يضاهى لمعان ماسات هديته النفيسة ، وتقفز مستديرة إليه ، وترتمى فى أحضانه . . .

إنه قوى وجميل وغنى . . .

وتركب معه فخوراً إلى نزهة ماتعة وسهرة رائعة بين الموسيقى والغناء

والرقص والتمثيل . . .

ويحدث هذا كل ليلة . . .

ولم يخطر لها قط أن هذا الريف لا تتيسر فيه تلك السهرات ؛ فإن الجنة فيها كل شيء ، ولا مستحيل فيها على أهلها ، لأن لهم ما يشتهون !

وتمطت كأنما أتعبتها الرحلة ، ومشت تقفز كالغزال إلى المطبخ تنشد شيئاً تأكله ، فقد نبهتها معدتها إلى جوعها ، ولا ينبغي للسعداء أن يتركوا الجوع ينغص عليهم نعيم الخلود . . .

وشعرت وهي تأكل أنها سعيدة ، وأن الطعام شيء رائع عظيم كأنه من طعام الجنة . . !

سا الفل !

لم يعد «سي عز الدين» إلى الدار في ليلة وصوله الأولى إلا بعد موهن . وبدا من منظره لأول وهلة أن صهره (شوق) أكرمه غاية المفهوم من الإكرام عند مثله ؛ فالواجب لا يتم إلا بعشاء تنحر فيه إوزة سمينة ؛ وتقرب بين يديها زجاجة من الكونياك مختومة بالرصاص آية على أنها «بختم ربها» الذي عصرها وعتقها في بلاد الغال . . ! ثم تتسلل النشوة إلى الدماغ ، فيزال الطربوش عن موقعه الغالي ، وتشعشع الذكريات مع شعشعة الخمر في منادمة لا تتحرر أبداً من المجاملات والتنادي بألقاب المزايدة في التفخيم ؛ فإذا بالشارب سكران سكرين لا واحداً : سكر خمر وسكر ثناء وغرور . . . وكلا السكرين نشوتهما في نهاية المضاف تفخيم الذات في عين صاحبها حتى يقول : «أنا جدع ، أنا بطل ،

أنا سلطان هذا الزمان ! » . . . وسيان حدوث هذا برشفة من رحيق أو جرعة من مديح . . . أما الجمع بينهما فتمام المنى وقمة الانتشاء . . .

وكان « سى عز الدين » يختال فى أبهاد تلك القمة وهو يتهادى مقبلاً وقد أمال طربوشه إلى الأمام حتى كاد يمس حاجبيه ، وشعّت من عينيه دندنة ، ولما خفّت لتلقاه زوجته رتيبة انطلقت من فمه تحية متعثرة فى اندفاعها النشوان :

— سا الفل !

فتبسمت رتيبة ابتسامة تجمع بين الإدراك والإغضاء ، والتوقع . . . فتلك أمارات تعرفها مذ كانت له فيما مضى لليلة الجمعة من كل أسبوع صبوة ، ولكن ذلك كان منذ سنين ، ثم تفاوتت الأيام ، ولم تعد للكأس دورتها المنتظمة فى حياة هذا الزوج .

ولو أن رتيبة تعمقت نفسها فى تلك اللحظة بفطنة واعية للمحت فى ابتسامتها تغيراً لم تعهده فى ابتساماتها لتلك الصبوات قبل أن ينقطع بها العهد ، ولأدركت فيها بوادر لم تستلفتها إلا بعد أن قاربت السمت . ولم يعد خفاؤها مما يستطاع .

قديماً كانت تستقبل تلك الصبوات من الباب بابتسامة إدراك ، ورضا . لا تخلو من إعجاب وإعزاز ، أما الليلة فالإدراك قائم ، والتوقع حاصل ، والإعزاز موجود ، ولكن الإعجاب اختفى وأخلى مكانه لإغضاء ودود .

ولو كانت رتيبة من ذوات الهواجس والوساوس فى مراقبة خواطرها

وبوادرها لنفذت من تلك البادرة إلى مغزى عميق ، ولاستشفت صدعاً عريضاً فى سدائها نصنعها المعبود . . . !

فما كان قدماً لذلك الزوج فى نفسها إلا الإكبار غير مشوب . لا ترى فى شمسه كلفا ولا فى هالته ثلمة . . . فإذا حمقت اليوم فى الشمس وقد شاب نظرتها الإغضاء فهى الآية على أن شمس الأمس زالت عن سمتها وجنحت للمغيب . . . أو أنها انتكست فأمست سراجاً ، وكل سراج يؤذن – وإن طال المدى – بخمود . . .

ولو رابها من ابتسامتها ذلك الريب لوجدت ما يعزوه فى حركاتها وهى تنضو عنه ثيابه ، فما كان تمايله وطيش حركاته عليها بجديد ، ولكن الجديد هو ما داخلها من الإشفاق الذى يكاد يشتبه بالزراية فى ترفقه الشديد . . .

وضمها المضجع ، وعندئذ كانت حورية – لو تنبهت – خليقة بأن تكذب هواجس ارتيابها – لو أن الريب داخلها – بما وجدت لصبوته من صدى ، وما أحدثته تلك الليلة فى كيانها من أشواق لم تكن تتوقعها ، وما كان لها بها فى سالف الصبوات عهد .

إنها لتجد فى نفسها مبادأة تربو على الاستجابة السالبة . . . فإذا المطلوبة طالبة ، وإذا المذعنة راغبة . . .

وهدأت الأنفاس بعد تلاحق ، وهمدت الجوارح بعد توثب ، ووجدت الدهشة المسرورة سبيلها إلى لسانه فقال من الأعماق :

– ما كان أطيب شراب الليلة ! . . . بورك فى أخيك ! . . .

ووافقته بلسان الحال لا بلسان المقال . . . فما عرفت لما عراها هذه الليلة سبباً معقولاً إلا ذلك العامل الظاهر من عوامل الإثارة للحواس ، وأغمضت عينيها تنشد نعاساً عميقاً هانئاً طالما تعودته من نفسها فى سالف الأيام . . .

واستغرق هو فى الغطيط ، أما هى فاستعصى عليها ما كان من قبل دانيا بغير عناء أو وناء . . .

وما كان غطيطه ليقلقها . . . وما فارقته ردحاً من الطول بحيث يقطع الإلف ويمحو تواتر العادة ، فما بالها الليلة وقد أوفت من نشوتها على كل غاية لا تجد إلى النوم سبيلاً . . . ويستجد لها قلق لا تقر معه على جانب ، ولا تستريح لوساد ؟

واستغرقتها نفسها فى ليلتها ثم فى أيامها الخاليات . . . وتراءت لها معطيات حياتها كلها فى ضوء جديد . فإذا لها نسب جديدة تغير من صيغتها ولونها وما كان لها من مفهوم . . .

أشواقها التى نبتت «مع» الصبوة خيل إليها أنها نابتة «من» الصبوة . . . وهو وَهْمٌ يغمض إلا على عقل متيقظ حذر ، وأين هى من ذلك ؟

أين هى من التفرقة الدقيقة بين متلازمين فى زمان تلازم العرض الطارئ لا تلازم الأسباب والنتائج ؟

كل ما خطر لها أن أشواقها النابتة «مع» الصبوة نبتت «من» الصبوة ، وأدهشها أن ترى الصبوة أربت على قصاراها ، فإذا الأشواق

لا تخمد كعهدها خمود الشبع والتخمة . . . وما درت أن أشواقها الليلة من نوع آخر ، أشواق نفس لا رغبة حس . . . وأشواق النفس ليست مما يدركه بالطعام انقضاء ، ولكنها كالنار تقوى بالوقود وتزداد اشتعالاً وضراماً .

وهذا القلق ؟ أعساها تريد مزيداً من هذا الذى أصابت منه فوق ما كانت من قبل تصيب ؟

والتفتت فى الظلمة إلى الراقد بجوارها على الحشية التى وسدت أرض الحجرة أمام تلك الأريكة التى باتت فيها منذ حلت دار الأسرة ، وتنبهت لنفسها وهى تتباعد عنه تباعد الصادفة كأن شيئاً فى دخيلتها وراء تلك الأشواق التى تقلقها قد انتهرها فى ضيق وتبرم حتى لا تخلط بين طبيعة تلك الأشواق وزاد هذه المائدة التى لها هذا الغطيط ، وهذه الريح التى يختلط فيها ريح الخمر بريح العرق الناضح . . .

فطنت لهذه الحركة من نفسها ، وما كان الغطيط والعرق ، بل الخمر – حين كانت للخمر فى حياته دورة – مما تضيق به أو تصدف عنه ، بل كان كل ما يتصل بهذا الزوج له عندها محل مرموق وإعزاز يختلط به التهيب والإكبار . . .

ما بالها الليلة تجمع بين الرغبة والصدود وبين الاستطابة والجمود . . . ؟ أى جديد طرأ عليها ؟ أى دخيل شاب اطراد حياتها فى مداها المعهود ؟

وتقلبت – وهى تجتهد أن تبتعد عن التفكير فى حالها – عسى أن يهدأ

ما بها من حنين غامض لا تجد له تفسيراً . . .

لعله طول البعد عن الزوج فى كنف الأم وفى مهد الصبا الطاهر البرىء من مطالب الأجسام ، ثم كان التبديل . . !

وداخلتها قشعريرة خوف وقد تذكرت ما تعرضت له أمها من خطر الموت لولا لطف الله وعناية زكى . . .

وزايلها الروع وابتسمت فى ظلمة الليل لأول ليلة قضتها فى هذه الحجرة على هذه الأريكة ، ومدت يدها تتحسس كسوة الأريكة « المزركشة » بالوشى ، وغمرتها سعادة مطمئنة مشرقة . . .

ووجدت نفسها تسترسل فى استرجاع تلك الأيام ، وما حفلت به من دقائق التفاصيل من أفانين هذا الإنسان الوفى النبيل الفذ فى جميع خلائقه الذى استغلقت حقيقة نفسه الرائعة فى إنسانيتها على أفهام البلهاء إلا هى . . . !

وشاعت فى نفسها الراحة ، وشاع الاسترخاء السعيد ، ووجدت نفسها ترنق للنوم وعلى شفتيها ترف ابتسامة وضيئة ليس فيها من القلق الذى أحسته منذ قليل شائبة تريب صفاءه العميق الذى شمل كيانها جميعاً ، فإذا هى فى عزلة مأنوسة لا وحشة فيها ، وإنما هو الاستقلال والاكتفاء . . .

واحتواها الكرى إلى مطلع الصباح . . .

المأخوذة

فتحت رتيبة عينيها وقد نفذت الشمس من وصاوص النافذة فملأت الحجرة ، وتقلبت فوجدت «سى عز الدين» ينظر إليها نظرة باسمة ، فألقت عليه تحية الصباح كالمعتاد وهى تغض بصرها أمام ما فى نظرته من تساؤل مرح معربد كأنه يسألها : كيف الحال ؟ وما رأيها فى ليلتها وقد أظهرت فيها من الشوق إليه ما أزهاه . . . !

– صباح النور . . .

وجمع فمه وهو راقد على ظهره كمن يشير إليها أن تقترب ليقبلها ، فدنت منه بوجهها ، ومنحته صفحة خدها فى عجلة وسلبية لا تنم على نشاط شديد أو احتفاء عميق ؛ وإنما هو انصياع ، ثم هبت واقفة لترتدى ثيابها وأمام نظرة الدهشة التى ارتسمت على وجه زوجها قالت :

– يا ترى أمى صبحت ازيها . . . ؟

– ما حطت فيها قالب . . . نفدت ولله الحمد . . .

– دا الدكتور بيقول النقاهة أهم من العيا . . . ولساها ضعيفة . . .

ولم تلبث رتيبة طويلاً عند أمها ، بل خطفت كلماتها خطفاً ، وأسرعت تغسل وجهها ، وتمشط شعرها وترجله ، ولم تنس أن تمس عينيها بشيء طفيف من الكحل لم تفت فطنة أمها ، فتبسمت تبسم الفاهمة ، وداعبت مخيلتها الواهنة صور قديمة كانت فيها سكناً لزوج تلوذ به ويلوذ بها ، وتنهدت تدعو فى سريرتها لابنتها بالهناء والرفاء ذاكرة لها بالفضل والشكر ما تجشمته من البعد عن ذلك الزوج ، فلا عجب أن تتزين له فى ليلته ونهاره اللذين سيقضيهما معها !

ولم يفت « سى عز الدين » ذلك الكحل وتلك العناية فى الزينة – فى حدود ما تعودته من احتشام وبعد عن الغرور والطلاء وقد جلس أمامها إلى مائدة الإفطار ، وقدمت بهانة بين يديه الزبد والقشدة وعسل النحل والجبن القديم والخبز اللين ، فرفت على شفته ابتسامة ماكرة ، ولكنه لم يزد على أن قال بلهجة ذات مغزى :

– والله سلامات . . .

فأغضت وهى تجيبه :

– تسلم .

وتذكر فجأة ابنته فسأل عنها . فقالت له رتيبة : إنها فى الحمام منذ استيقظت ، وإنها وجدت الحمام معداً بمائه الساخن ، بعناية بهانة وفطنتها

الفطرية ليكون فى انتظارهما متى استيقظا ، فحسبت البنت أن بهانة أعدته لها ، فاستأثرت به وأطالت . . .

وبرزت حورية من الحمام فى تلك اللحظة وقد احمر جلدها من كثرة الحك ، ومشطت شعرها وعقدته كعكة فى مؤخر رأسها ، فبدت أكبر سناً ، وباعد ذلك العقص بينها وبين السمة الغلامية التى تغلب على لداتها من المراهقات ، وأقبلت تتثنى وقد ثمل عطفاها من حرارة الحمام ، ومالت فوق أبيها فقبلته قبلة الصباح ، فتشمم الهواء وقال مداعباً :

– الله ! ما أطيب رائحة الصبا . . . !

فقالت فى اختيال لا أثر للخجل فيه :

– مرسيه . . .

فنظر الأب إلى أمها وغمز بعينه ، وأتم إفطاره ريثما أعدت بهانة الماء الساخن لحمامه ، فنهض إليه ، ثم ترك الحمام لزوجته ، فما كان من عادتهما أن يستحما معاً ، وارتدى ثيابه وأخذ يحتسى القهوة .

وخرجت رتيبة من الحمام ، فناداها لتدرك قهوتها قبل أن تبرد ، ولكنها ألقت نظرة على الساعة العتيقة المثبتة فى الحائط ، وقالت بوجل :

– ألبس ثيابى أولاً ، فقد يدخل الدكتور بين لحظة وأخرى . . .

وأسرعت فى ارتداء ثيابها ، ولم تنس أن تمس عينيها بالكحل مرة أخرى ، وتضع شيئاً من العطر ، وعرجت على النافذة لتطل منها على الطريق ، فوجدت هناك حورية وقد ارتدت ثوبها وأحسنت زينتها تكتسح الأفق بعينيها كأنها طائر البحر يفتش عن قنيصة من صغار

السمك ، فقالت لها :

– لم تفطرى بعد . . .

فالتفتت إليها الفتاة وقالت بلهجة تفيض غزلاً ورقة :

– الهواء يا ماما . . . هواء الصبح العليل . . .

ثم قفزت كالغزال متجهة إلى المائدة عندما نبهتها أمها إلى وجوب الإسراع فى رفعها قبل أن يحضر الطبيب ، وتعللت رتيبة بجرعة ماء شربتها من القلة ، وكانت بها بقية ماء من رشح الليل الطويل ، فذهبت بها وملأتها ، وعادت بها إلى النافذة . . .

ولم تكن فى حاجة إلى مزيد من التعلات بعد ذلك للوقوف فى النافذة ؛ فقد أبصرت سيارته مقبلة ، ولكنها لم تنبه لذلك زوجها ، بل تجاهلت الأمر ، وابتعدت إلى حجرة المائدة فارتشفت فنجان القهوة البارد جرعة واحدة وهى جالسة أمام زوجها الذى أخذ يروى لها قصة التقائه بصديق قديم عند أخيها شوقى ، وكيف دعاه هذا الصديق للغذاء اليوم ، وحلف بالطلاق ، وكيف أنه سيذهب أولاً فيحلق شعره وذقنه ، ثم يصلى الجمعة مع أخيها والصديق ، وبعد ذلك يذهب ثلاثتهم إلى بيت الصديق لتناول الغذاء ، وقد وعدهم بوجبة رقاق وكسكسى وأوزتين سمينتين . . . !

ولم يسترسل فى الحديث ، لأن صوت زكى جلجل فى الفناء الداخلى من أسفل ، فهبت رتيبة واقفة فى دهشة متفننة وقالت :

– يوه . . . ! الدكتور وصل . . .

والتفت «سى عز الدين» بسرعة فاختطف طربوشة ووضعه على رأسه ، ثم سوى عقدة رباط عنقه بيده فى حركة تلقائية ، وزرر سترته وتقدم من رأس السلم ليستقبل القادم ، ورفع عقيرته بعبارات الترحيب . فلم يلتفت إلى وجه زوجته التى أسرعت بعد النظرة الأولى إلى وجه زكى ، فدخلت على أمها وتشاغلت بها ، ولم يلتفت إلى حورية التى تسمرت فى عتبة حجرة المائدة وقد زايلتها شجاعتها وتفكيرها كله ، وصعد الدم إلى وجنتيها وأذنيها ، وغضت بصرها ، ولا شىء يدور برأسها حتى ذلك الخاطر الذى ألح عليها طيلة الصباح ومعظم الليل : ترى هل يفتح الدكتور حديث الزواج أمام أبيها ؟ . . . إن ذلك الحديث يكون ولا شك أكثر جدية وأقرب إلى الرسميات المطلوبة فى هذه الأمور . . .

وكانت فى ربع الساعة الأخير متوجسة أن يخرج أبوها من الدار قبل وصول زكى ، ولهذا شغلته بحديث مفكك متعثر ، ولكنه متلاحق وهى جالسة تفطر ، واستبطأت قدوم زكى حتى خالته لن يحضر ، وداخلها أنه ربما ندم ، أو آثر الانتظار لصغر سنها ، فلم ير فى المسألة داعياً للاستعجال . فلما حضر فعلاً طارت هذه الأفكار كلها من رأسها ، ووقفت كالصنم مسلوبة الحياة والعقل والحراك كأنما كل وظائف حياتها انتقلت إلى ضربات قلبها . . . !

وتوقعت أن يهتف باسمها بمجرد صعوده ، لأنها قدرت أن عينيه ستدوران فى أرجاء المكان بحثاً عنها ، وأنه سيشعر بوجودها من قبل أن يراها بما فى قلوب المحبين من حساسة خارقة ، وتوقعت أن يكون فى أبهى

زينته ، وأن يكون حضوره خصيصاً شوقاً إليها ، لأنه لم ينم طول الليل مضطرباً كاضطرابها . . .

ولم تسمعه يهتف باسمها ، بل رأته مشغولاً فى تبادل تحيات طويلة مع أبيها الذى انحنى حتى يكاد يمس يد الطبيب برأسه وهو يكرر عبارات التشرف العظيم وحصول البركة ومنتهى الشكر . . .

وهالها أكثر من كل شيء أن فارسها اضطرب لتلك التحيات ، وظهر عليه الخجل ، وزايلته طلاقته وذلاقته ، وصار يكرر بلا انقطاع كلمة :

– أستغفر الله . . . الله يحفظكم . . .

وقد أطرق ببصره ، وأنشأ يسأل عن جدتها فى رزانة وتحفظ . . . كأنه لم يحضر إلى هذه الدار اليوم إلا من أجل تلك العجوز المريضة . . .

وخشيت أن يعبر بها من غير أن يلتفت إليها فيقتلها ذلك التجاهل قتلاً ، فأسرعت تتوارى داخل حجرة المائدة حتى لا يستطيع أن يراها ؛ وبذلك يكون له لديها ما تتعلل به من عذره .

ودخل الرجلان حجرة المريضة مارين أمام حجرة الطعام ، وأغلق الباب ، ودخلت القهوة على يد بهانة بعد قليل وهى واقفة فى مكانها بركن حجرة المائدة تعض شفتيها حتى لا تبكى غيظاً وكمداً وتوجساً . . . إلى أن سمعت صوت أبيها يناديها باهتمام عظيم ، فجن جنون ذلك القلب الفتى ، وتشبثت بالركن مذعورة مشفقة على نفسها من الساعة الهائلة ، ساعة الحسم الكبرى فى حياتها . . . ساعة الخطبة . . . ووقعت سعادتها العظمى على قلبها الغض وقع النوازل المصميات . . . !

ورأت أباها يفتش عنها إلى أن عثر عليها ، فجذبها من يدها متعجباً وهو يقول بلهجة التأنيب :

– عيب ! تعالى سلمى . . .

ولما دخل الحجرة قال كالمعتذر :

– مكسوفة تسلم على عمها الدكتور زكى بك . . . إنه ليس غريباً . . . سلمى يا بنت . . .

ومدت يدها وهى تتراجع إلى الخلف برأسها المنكس ، وضحك زكى وسلم عليها ، وجذبها إليه وقبل خدها ، فكاد يغمى عليها ، ودس فى يدها قالب الشكولاتة الكبير . . . فأخذته وأسرعت هاربة .

وخارج الحجرة سمعت قهقهة ، فذابت خجلاً وغيظاً من نفسها لتلك النكسة الطفلية التى أصابتها فى الموقف الذى كان يجب بالذات أن تبدو فيه ناضجة وأهلاً للمناسبة العظمى . . .

وصدمتها كلمة أبيها وقد تذكرتها الآن : « عمك » . . .

– عمى ؟ ما هذا الكلام ؟ أهكذا يقال عن عريس وخاطب ؟

وأطبقت فمها المفغور ، وابتسمت فى مكر وقد أدركت بحذاقتها ما هناك ! إن هؤلاء الآباء لهم عقلية ساذجة جداً بالنسبة لأعمارهم ، فهم يتخيلون مثلها طفلة ستخاف من كلمة عريس وزواج ، ولهذا تحايل بسذاجة ليدخل عليها الطمأنينة مؤقتاً ، ولكن على من ؟ فلتتركه على كل حال « فى عماه » كى ينعم بوهم حصافته ، فلا شك أنه يعد الآن خطة محكمة لتمهيد ذهنها للنبأ الجلل ، ولو درى المسكين لوفر على نفسه المجهود

كله ، ولعلم أنه الشخص الوحيد فى الدار الذى لا يعلم أنها فاهمة وراضية بل متلهفة . . . !

وفضت الشكولاته وراحت تأكلها وهى فى قمة السعادة . . . وجعلت تتصنت على الحديث ، فلم تفهم منه إلا مجاملات عادية ، وسمعت أباها يتشدد فى دعوة زكى للعشاء تلك الليلة ، ولكن الطبيب اعتذر فى خجل وحزم . . .

وفرحت ، فتلك الدعوة تؤكد المؤامرة ، فالخاطب عادة هو الذى يدعى للعشاء ليلة الفاتحة . . . صحيح أنها لم تسمع تلاوة الفاتحة . ولكن ليس مستحيلاً أن يكون ذلك قد تم بصوت خافت حتى لا تسمع . . .

وتنبهت لصوت قيام أبويها والطبيب ، ومغادرتهم الحجرة ، فأسرعت تخفى سرورها حتى لا تنفضح حالتها لأبيها ، وتوارت داخل حجرة الجلوس . . .

ومن النافذة أبصرت خلسة والدها يركب السيارة بجوار زكى فرقص قلبها ، وأيقنت أنهما سيتفقان اليوم ولاشك على جميع التفاصيل ، وربما شهدت الليلة أو غداً خطوة جديدة لتمهيد ذهنها ، بل قد تكون تلك الخطوة هى هدية الشبكة الثمينة بالذات . . .

وتخيلت زميلاتها اللواتى ظنها «مفعوصة» ، بل تخيلت أبلواتها وقد أكلتهن الغيرة ، وأما مسألة السن فليس تذليلها بالعسير على طبيب يحرر شهادات التسنين للفتيات كل يوم كى يتحايلن على القانون الجائر ، فلا شك أنه متلهف كلهفتها على اجتماع الشمل . . .

أنت مهجتى

دفع زكى الباب بقدمه ، ودلف من حجرة مكتبه بمستشفاه إلى حجرة استراحته الخاصة ، وكان يجفف يده بمنشفة بيضاء من التيل . فرماها من يده فوق مقعد من الخيرزان ، ووقف يجيل نظره فى الحجرة وقد ضيق من فرجه عينيه كأنه لم يعش هاهنا بين هذا الفراش الأبيض الذى يشبه أسرة المرضى فى حجرات المبنى الأخرى وهذه المائدة المستديرة الصغيرة الحجم ومقعدى الخيرزان والكرسى الأسيوطى ذى الوسائد البنية أكثر من ثلاثة أعوام ، ومع هذا فهو يتفحص هذه الأشياء كمن يراجع نفسه فى جدارتها بالمكان الذى تحتله ، أو يراجع نفسه فى مكانه بينها . وهو الذى كان يعاملها فى ألفة كأنها ذراعه أو فتحة فمه . . .

حتى الأطباق التى على المائدة لم تسلم من هذه النظرة ، مع أن الألوان

التى عليها لم تكد تتغير فى كل يوم من أيام السنوات الثلاث : ست أضلع ضأن صغيرة مشوية وأرز وبيض محمر وسلاطة خضراء وخضر مسلوقة (سوتيه) قد تكون بازلاء فى يوم ، أو خرشوفاً فى يوم ثان ، أو كوسة فى يوم ثالث مع شىء من فاكهة الموسم .

أثاث لا زخرف فيه ولا ترف ، ومائدة لا افتنان فيها ولا سرف هى أقرب إلى التقشف منها إلى أى صفة أخرى .

ومط شفته السفلى ببطء ، ثم مد يده إلى بيضة دسها فى فمه الواسع ، وشرع ينضو عنه معطفه الأبيض ويرميه فوق المقعد الأسيوطى ، وجلس بعد ذلك إلى المائدة فواجهته مرآة دولابه الصغير ، فأخرج لصورته لسانه وقال بصوت مسموع :

– الأكل أكل أيها الولد الأحمق ! لابد أن تأكل لتعيش ! ياله من اكتشاف نحتاج إليه جداً فى بعض الأحيان لتبرير ما لا يحتاج إلى تبرير !

ورفع ضلعاً من أضلاع الضأن بيده ، ورفعها إلى فمه بحركة نحد لصورته فى المرآة ، ثم هش مشجعاً لما رأى «الآخر» يقلده :

– تعجبنى ! هكذا ينبغى أن تفعل : رغبة أو لا رغبة ، شهية أولا شهية . . . لابد من الأكل شئت أو لم تشأ . . . فلتشأ إذن ، فذاك أحجى وأحصف !

وسمع مقبض الباب يتحرك ، فحول عينيه إليه وقد ضاقتا قليلاً كما ضاقتا وهو يدخل الحجرة منذ برهة يسيرة ويتفرس ما فيها ، ورأى من كان يعلم أنها ستدخل كما تدخل كل يوم . تفتح الباب كما تفتحه كل يوم فى

الساعة الثانية بعد الظهر ، على أثر انتهاء دورة العمل الصباحية فى المستشفى .

وأغلقت « مهجة » الباب وراءها فى خفة ، واتجهت إلى المرآة تسوى شعرها بيديها بعد أن نزعت غطاء الرأس الأبيض ، وتفرست فى قوامها المليء قليلاً بشيء من التغزل ، ثم التفتت إليه وتخللت شعر رأسه بيدها ، كما تفعل كل يوم ؛ وككل يوم وضع يده اليسرى على ظهرها أسفل الخصر ، وراح يتحسسها وهو ينظر إليها فى المرآة ، فمالت برأسها إلى اليسار فى تدلل وقالت وهى تلوح بسبابتها فى الهواء :

– ممنوع المرور ! السيافور مقفل . . . !

ورفع يده فى تخاذل هادئ من غير إلحاح ، وتنهد وهو يقول بصوت خافت :

– أنت مهجتى !

ولوكانت مهجة ممن يفطنون إلى ظلال الأصوات للمحت فى تنهده وكلمته معنى السأم والارتياح للضوء الأحمر الذى يحمله ذلك السيافور المقفل . . . !

وأقبلت على الطعام بشهية شديدة ككل يوم ، وأتم هو وجبته المعتادة فى سرعة أشد من كل يوم ، وجعل يسقط نوى البلح من فمه على المائدة ، فيصطك بها فى نقرات متباعدة وهى لا تفطن إلى ما فى حركة لفظه البطيء الخائر للنوى من بين شفتيه من ملالة وخمود ، وهو يفكر فى أمس وأول أمس وما قبل ذلك . حين لم يكن ذلك السيافور مقفلاً .

وكان المرور مباحاً ، وكان يمر ، وكانت قعقعة العجلات أكثر كثيراً من اندفاع القاطرة بقوة البخار ، والسائق مع هذا لا يريد أن يكتشف ناظر المحطة والركاب أن قاطرته ليست كمهدهم بها منذ ثلاث سنوات . . . !

وتنهد تنهداً اشتبه فى حس مهجة بتنهد التحسر ، وتحير لحظة ماذا يقول ، أو على الأصح ماذا يجب أن يقول ؟ وإذا التليفون الأبيض يرن بجوار الفراش وهو التليفون الداخلى ، فتركها ترفع السماعة ، ولما قالت له :

– رقم ١٦ أفاق من التخدير وأخذ يتقيأ . . . تمطى وقال لها :

– اذهبى أنت . . .

وانطلقت – برغم امتلائها – كالقنبلة تدك الأرض بخطواتها ، ونهض هو إلى الدولاب الصغير ، وأخرج منه زجاجة ويسكى صب لنفسه منها قدحاً ، ثم أشعل سيجارة وجلس يفكر . . .

لقد وجد نفسه يعاشرها منذ خمس سنوات. دخلت فى حياته من غير دعوة سابقة ، بل إنه كان يسميها « الجاموسة الحسناء » لسمرتها المفرطة التى تجعل بشرتها أشبه بالشيكولاتة عندما رآها لأول مرة بعد عودته من إنجلترا وتعيينه فى المستشفى الأميرى . ومع ذلك كان وتر معين بين أوتار سريرته يحن إليها ، وفى مرة ضحكت لنكتة لاذعة من نكته وقد فرغا لتوهما من إجراء جراحة نثرت الدم على ملابسها وقناعى وجهيهما . ومالت عليه مترنحة وهى ترمقه بعينيها فى غزل سافر ، فجذبها إليه وانقض على فمها ، وتركت نفسها كالخرقة بين يديه . . . وحاول أن يوقف نفسه

عن الاندفاع ، ولكن القاطرة خضعت لضغط البخار وتجاهلت السائق . . . !

ولما سوت ثيابها من غير اضطراب هرش رأسه وقال لنفسه :

– صحيح فلاح ابن فلاح فى دمه حب « الطين » ، يلهظ المش لهظاً ، ويبرد حرقان لسانه وشفتيه بفحل بصل إلى أن تتورم اللثة والشفتان !

ونظر إليها وهو يغالب استهانته بأكلة المش بالبصل التى أصاب منها فوق ما كان يقدر ؛ حتى لا تقرأ ذلك على سحنته ، ورآها تطوق عنقه فى تدلل ، وتقبل فمه قبلة مثل رشفة العصفور ، وتنفلت مولية من الحجرة فى رشاقتها ذات الوزن الثقيل .

ووجد المش بالبصل أمامه فى كل يوم بلا طلب ولا مناقشة ، وهز ابن أبى زعبوط كتفيه ومط شفته السفلى ولم يتمنع ، وما حيلته ودمه الفلاحى يجرى فيه حب الطين والمش والبصل .

ودخلت فى كل زاوية من زوايا حياته حتى كان يسميها أحياناً « البقة » ، لتسللها إلى كل شق بلا استئذان ، ولكنها بقة هادئة تمص شيئاً من الدم من غير إفراط ، وتشترى لنفسها الغوايش والأساور ، وتودع صندوق البريد ما تيسر ، وفتحت لأبيها ساعى البريد السابق دكاناً للبقالة يجلس فيه بالبيجاما الزفير المقلمة أو الكستور البيكة وعلى رأسه طربوشه وهو مزهو بهذا الارتقاء وبالتغيير الذى رفع عنه لعنة اللون الأصفر الكالح فى ثيابه الرسمية الغابرة . . . !

واكتشف الجيران البق ، وكتبوا شكاوى مجهولة إلى الوزارة ، ونقلته الوزارة إلى الصعيد ، واستقال منذ ثلاث سنوات ونيف ، وافتتح هذا المستشفى ، واستقالت البقة من الميرى ، وعششت معه هنا من غير تردد . . .

إنه طول حياته يأكل ليعيش ، وبهمه ترتيب وجباته البسيطة فى نظام دقيق قلما يتغير حتى يخلى ذهنه من التفكير فى صدده ، وينصرف لوجوه حياته الأخرى التى لا غنى فيها عن التفكير ، . . وبحسبه أن تكون المائدة مغذية نظيفة مضمونة الإعداد فى أوانها المعلوم أو المرتقب وإلا فإنه يأكل «الحاضر» متى جاع .

وهو يقبل على مائدته البسيطة هذه فى استمتاع موقوت ، وشهية سليمة تنبى عن صحة وعافية ، ثم يعود إلى حياته ونشاطه .

وكذلك هى : مائدة أخرى نظيفة غير مغرية ولا مبهرجة ، ولكن فى حاجته الطبيعية إليها ما يكفى إغراءه بها فى أوانها ، يقبل عليها مستمتعاً حتى يصيب شبعه ، ثم ينصرف إلى حياته ونشاطه لا يفكر فيها إلا حين تدور الدورة ويأتى الأوان ، وبحسبه أن يعلم أنها حاضرة وأنها خالية مما يشوب ويكدر !

وقد استطاعت مهجة أن تريح مهجته من عناء الاهتمام بمائدتيه ، وحمد لها أنها أعفته من التفكير مكرها فى الزواج لتوفيرهما كما يصنع معظم الناس ، فاستراح إليها واطمأن .

ولذعت يده السيجارة التى انتهت وهو لا يشعر بها ، فرماها من يده

فى ضيق مع أنه كان قد أشعلها منذ هنيهة متلذذاً بنكهتها ، ونهل من أنفاسها فى شوق . . .

وتذكر زهده منذ أيام فيها – فى مهجة – فهل ترى صار أمرها إلى ما صارت إليه هذه السيجارة ؟

– شىء سخيف . . ولكن هذا لا يمنع أن يكون حقيقة واقعة ؛ فالواقع لا يتقيد بقواعد الظرف والسخافة والجمال والقبح ؛ ألست هفوت إليها وهى قبيحة ، «جالوص» من الطين ؟ وكان ذلك سخافة أو إسفافاً ، ومع هذا فهو حقيقة . . . ! طبعاً طبعاً سوف يزعجها أن تكتشف أنها سيجارة استنفدت أو مائدة نضبت فيها ينابيع الاستهواء للغدد اللعابية ، ولكن متى كانت هذه هى الحقيقة فلا حيلة لى ولا لأحد فى ذلك !

إنه لم يؤمن يوماً من أيام حياته بالأوهام ولا بالتكلف ولا بالزيف والخداع ، ولم يتحدثا يوماً فى أمر الزواج ، وكان السكوت من الطرفين عن حديث الزواج تواطئوا ضمنياً على استبعاد هذا الموضوع . . .

والغرام ! حتى الغرام نفسه لم يكن موضوع بحث بينهما فى أى وقت ، وكان قصاراه أن يقول لها :

– أنت مهجتى ! مهجتى أنت !

وهو يتحسس بكفه فى استطابة ردفيها الكرويين الصلدين ، وكان يعنى ما يقول حقًّا ؛ فهى تتيح لمهجته الراحة من شواغل هذه الضرورات العضوية والحيوية ؛ فهى إذن سياج مهجته وروحه الذى يحميه من القلق

والتخبط والاهتمام المزعج بتلك الضرورات المحتومة .

ولكنه يجد نفسه الآن فى قلق وفى قلق شديد ، حتى إنه لا يستطيع أن يستقر أو يقبل على مائدته المعهودة . . . !

ولكن ما حيلته ؟ ماذا يستطيع أن يصنع ؟ وكيف يمكن أن يتعلق بوهم ، إن لم يكن بمحال ؟

أليست ذات زوج وذرية ؟

وقطب حاجبيه فى ضيق ، وإذا الباب يفتح ، وتدخل مهجة باسمة فى إغراء ، فتبسم فى جهد ، وقال لها متعلقاً ببقية من الأمل فى إنقاذ الموقف :

– أهلاً مهجتى . . .

ومالت عليه تدغدغ أذنه بأسنانها الكبيرة الحادة ، وكان هذا يثيره ، فقال لها :

–وبعد ؟ وتلك الملعونة ؟

فهزت رأسها وقالت فى خبث مغر :

–كنت أضحك عليك ! أردت أن أغيظك . . . وكنت واثقة أنك ستنخدع ! فأنت أشد رجال العالم شروداً ، ولا تنتفع بطبك لتدرك أن ما يحدث كل شهر لا يمكن أن يحدث كل سبعة عشر يوماً . . .

وجلست فى حجره ، ووجد نفسه متورطاً أمام ناظر المحطة وأمام الركاب – أن يدفع قاطرته دفعاً للمرور وقد أضاءت جميع المصابيح الخضراء فى إلحاح فوق السيافور المفتوح . . . !

ولكن المائدة الممدودة أقنعته – وهو يكد ليبتلع لقيمات منها بمشقة شبه فاشلة وبتعثر شديد – إنه شبع منها ، وبلغ ما فوق الشبع لحد المجاعة !

ولما أدار لها ظهره لينام – وقد انطلقت كعادتها إلى الحمام – كانت المرارة تملأ فمه المطبق إطباقة الحنق بطعم الرماد الخشن المحترق . . . !

الريح !

استيقظ زكى من ضجعة القيلولة وفى رأسه «وش» كأنه نشيش قاطرة تنفث ما بها من البخار وهى تلهث واقفة، تنشد الماء فى إحدى المحطات بعد سفرة طويلة مجهدة . . .

ولم يمد يده إلى الجرس ، بل فرك عينيه ونهض بنفسه يروى ظمأه الملح بكأس من الويسكى ، ثم جلس على سريره ، ومد شَفَتَه السفلى إلى الأمام وهو يحملق أمامه ويهز رأسه كأنما يريد أن ينفض عنه الصداع الذى يطرق جدرانه من الداخل طرقاً ملحًّا :

– مم ! يظهر أنه آن الأوان . . .

وتطلع إلى السماء من خلال النافذة ، فوجدها صافية رائعة ، فأدار رأسه ونظر بجنب وجهه إلى السماء باستنكار عابث وقال :

– أما وأنك قليلة الذوق حقًا ! طبيعة ليس عندها دم ! فى منتهى الروقان حضرتك ، ولا كأن عندك خبر «بالقمطرير» الذى فى دماغى وصدرى ! يظهر يا ابن أبى زعبوط أنك شىء هايف جدًا فى هذا الكون الكبير . . ! ومع هذا فأنت لا تستطيع أن تنظر إلى سمائك بعين السماء التى لا يعنيها أمرك ! أنت مضطر يا ابن أبى زعبوط أن تواجه عاصفتك التى تتجمع فى سمائك الصغيرة هذه . . .

ورمق صورته فى المرآة بنظرة من تحت حاجبيه تجمع بين التدليل والتحفز وهو منكس رأسه يحك ذقنه بيده ، ويتحسس بوادر لحيته . . .

– عاصفة أو لا عاصفة . . ! لابد أولاً من الحلاقة ، ثم الحمام ، ثم بعد هذا أهلاً بالزوابع كلها . . .

وانصرف إلى تنعيم ذقنه كأن لا شىء يشغله وراء هذا التزين ، ودخل الحمام وجعل يدندن بصوته «النشاز» ، ثم ارتدى بدلة مكوية وانتقى رباط عنق أصفر اللون ، ونظر إلى هيئته فى المرآة وقال :

– يا أصفر يا صفرفور ! ولم لا ؟ أليس الأصفر هو اللون الذى يستخدمونه فى «السيمافور» ، وسطا بين الأخضر والأحمر ؟ ليكن إذن ! لعنة الله على الأحمر والأخضر معاً !

– أتكلم نفسك مرة أخرى ؟

وانتفض ينظر إلى مهجة التى وقفت خلسة فى فرجة الباب تضحك منه كعادتها كلما ضبطته يكلم نفسه ، وما أكثر ما كان يفعل ! واعتدل إلى المرآة يلقى على نفسه نظرة أخيرة وهو يقول لها مشيراً إلى صورته :

– وما حيلتي ؟ هذا الآدمي دمه خفيف ، وذكي ، فلا أملك نفسي – مع أنه أخرس أبكم – أن أجاذبه الحديث كلما رأيته ! . . .

وغمز لصورته بعينه كمن يتواطأ على كتمان سر ، ومر بها عند الباب ، فلم يقبلها كما كان يفعل ، بل قرص طرف أنفها بين سبابته ووسطاه بحركة كماشة جاءت أعنف مما كان ينوى ، حتى إنها صرخت ، فدق صدره بيده – يقلدها – وقال بلهجة نسوية :

– يقطعني !

وانفلت إلى سيارته ، وانطلق في طريق العزبة . . .

ولم يطل به الانطلاق ، لأنه تذكر حورية ، فعاد أدراجه إلى أكبر محل في المدينة فاشترى لها صندوقاً معدنيًّا به شكولاتة فاخرة ، واستأنف انطلاقه إلى خارج المدينة . . .

وعلى الطريق الزراعي تمهل كأنه يريد أن يرى المزروعات على جانبيه ، ولكنه لم يكن يرى شيئاً من كل هذا الذي حوله على الأرض ولا مما فوقه في السماء ، لأنه شغل بسمائه التي في أعماقه ، وما يؤذن به أديمها «القمطرير» من عاصفة عاتية .

وكان ولوعاً بكلمة «قطرير» ، ويتذكر بها دائماً «الشيخ زيان» فقيه العزبة القديم ، فلا يغالب الابتسام لما يحف بتلك الذكرى من فصول الشيطنة التي استوجب بها من الشيخ الضرير لقب (الزنديق) !

وهز رأسه ساخراً ، وقال لصورته في مرآة السيارة :

– والله حاقت بك دعوات الشيخ المسكين أيها الزنديق ! أين تريد

أن تزج بنفسك أيها الأرعن الطياش ؟ أما وجدت امرأة تحبها إلا هذه «الجدة» ، ذات الزوج الذى يسير كأنه يحمل وقراً من المهابة والوقار ، وذات الذرية التى تزوج منها فريق وفريق آخر فى الانتظار ؟ هل ضاقت الدنيا أيها الأحمق ؟ صحيح سكة الصغار عوجاء !

وبلغ بوابة مزلقان للسكة الحديدية وجدها مقفلة ، فأوقف السيارة ، وأشعل سيجارة ، واعتمد بذقنه على عجلة القيادة ، وأغمض عينيه قليلاً ؛ يجارى الصداع ، ويتتبع الجدل الذى يدور فى دماغه المكدود !

– ما حكايتك بالضبط يا بن أبى زعبوط ؟ ماذا تريد أن تصنع بنفسك وبالناس ؟ صارحنى يا فتى ؛ فأنت تعلم أنى أحبك على كثرة عيوبك وفراغ عقلك ، وأريد بك الخير والسعادة ! تكلم ولا تخف . . ! من لك فى الدنيا سواى ؟ ولن تفضى بخبيئة نفسك إن لم تفض بها إلىّ ؟ تكلم يا ولدى !

– ليتنى أعرف ماذا أقول ! أعرف فقط أنى أحبها . لماذا ؟ لا تسألنى هذا السؤال ؛ فأنا مغتاظ من نفسى لأنى لا أدرى ، بل كلما فكرت لم أجد داعياً واحداً معقولاً لهذا الحب !

– لا عليك يا صغيرى من الأسباب ! ومن ذا الذى عرف سبب حبه من الناس ؟ هذه أمور تحدث ، ولا تحتاج إلى أسباب يقتنع بها العقل . واسمح لى أن أقول لك : إن عقلك هذا فضولى – كعقول الناس كلهم – يريد أن يحشر نفسه كالمقدونس فى كل شىء – المهم أنك تحبها وأنك واثق بذلك .

– جداً . كل الثقة . . . ولكنها متزوجة ، وأم . . .

– طظ يا فتى ! ومتى كان الواقع العاطفى يقيم وزناً لهذه الأمور؟ هذه أشياء لا أهمية لها إلا فى عقلك . أما قلبك فلا يعترف بهذه الأمور إلا عندما يرتطم بها وتصده عن الوصول إلى مبتغاه . . . !

– ولكنى لا أفهم نفسى ، لست بالرجل الذى يتزوج ويعشش فى بيت ، لقد كنت قانعاً بمهجة وأنا حر طليق كالهواء . . . كهذه الرياح التى تجرى هنا وهناك : فكيف يمكن أن « أخلد » إلى حبيبة وأسكن إليها وأقف عندها لا أريد أن أبرحها ؟ هذا ما يكاد يطير عقلى ، ويجعلنى أشك فى حقيقة شعورى نحو هذه المرأة . . . كيف يمكن الريح أن تتوقف عن الحركة ، والانطلاق ؟

وصفر القطار ، ومر فى ضجة صاخبة ، وانفتحت البوابة ، واستأنف زكى طريقه . . .

– مم . . . ؟ يظهر أنك قررت بصفة حاسمة أنك من عنصر الهواء والرياح . . . أبوك كان يقول عنك دائماً : إنك هوائى ! اسمع ! اصدقنى ! هل تراها جميلة جمالاً ساحراً طاغياً ؟ . . .

– أبداً . . . أنا مدرك تمام الإدراك أنها ليست رائعة الجمال !

– ومع هذا تحبها ؟

– آه ! جداً . . .

– شىء محزن ! المسألة إذن جد يا أبا الزيك ! هنا الخطر ! هو الحب إذن يا فتى ، ولا سبيل للشك فى الموضوع . . . فرتب أمورك على

هذا الأساس ، أما مسألة الرياح هذه فلا لزوم لأن تشغل بها ذهنك على الإطلاق .

– ماذا ؟ أتعتقد أنى أجهل نفسى إلى هذا الحد ؟ أنا واثق بأنى كالرياح ، وأن لا غنى لى عن انطلاقة باستمرار ، وإلا أسنت وتعفنت وفسدت !

– يا سلام ! أنت أشبه ما تكون بالرياح حين تكون هوجاء ، فأنت أهوج ولا تتدبر ما يلقى إليك من الكلام . . . كن ريحاً كما تشاء ، ولكن ذلك ما كان ينبغى أن يقيم لك مشكلة فى دماغك « تبرجلك » إلى هذا الحد ! ماذا لو لم تكن درست العلوم ، والطب فى أوربا ؟ . . . أنت من عنصر الرياح ، ولكنك لست كل ما فى الدنيا من الرياح ، أنت بضعة من الهواء . . . هذه البضعة من الريح هبت على روضة فحملت من شذاها ، وهبت على جيفة فحملت من نتنها . . .

– يا حفيظ !

– اخرس يا وقح ولا تستهزئ ! حاول أن تفهم وتتعقل ما أقول لك ! ومرت هذه الريح – التى هى أنت – على حقل فحملت حبوب اللقاح من شجرة إلى شجرة . (وأرسلنا الرياح لواقح) – الله يرحمك يا شيخ زيان ! وربما هبت على كوم من السباخ فساعدت على تأكسده وتحلله . . . ومرت على مدخنة مصنع فحملت من دخانها الأسود . كل ذلك جائز ، فالريح يمكن أن تدخل أى مكان ، وتتفاعل هى وأى شىء ، وتحمل أى رائحة خبيثة كانت أو طيبة . . . وتدفع السحاب من

موضع إلى موضع . . . وهذا كله يفسر أحوالك الشتى فى دراستك وجدك وهزلك ، وطبك ورقتك وشموسك وتورطك فى المباذل أحياناً بلا إحجام وبلا تعلق وبلا ندم ، ثم انصرافك عنها إلى وجوه من البر والإيثار من غير تدرج . . . فأنت حقاً ريح . . . قابلة لكل كيف وكل عمل ، وكل رائحة . !

– ليس هذا موضع خلاف بيننا ، ولهذا رأيتنى « مبرجلاً » كما تقول : أليس هذا الحب « حالة » موقوتة بمرور الريح ، ثم لا يبقى منها أثر بعد قليل مع شدة امتلائى به فى هذا الحين ؟

– صبرك يا أحمق . . ! لا تأخذ رأس الكبة وتطير كما كانت تقول عنك زوج أبيك جلفدان هانم أفندى !

– صبرت ! قل يا سليمان الحكيم ولقمان هذا الزمان !

– ولكن الريح تدخل أيضاً فى خياشيم الحيوانات والبشر ، وتنفذ إلى صدورهم ؛ وعندئذ تتفاعل هى والدم ، وتجدد كراته الحمراء ، وتسرى فى العروق إلى الشرايين والخلايا ، وهذه الأنفاس من الهواء أو الريح تصير شيئاً واحداً هى وهذا الكائن الذى استنشقها ففيم أفادك طبك إن لم تفهم هذا؟ وقد استنشقتك رتيبة يا صاح ، وصرت بضعة منها ، فلا حيلة لك ، ولا سبيل إلى انتزاع نفسك منها ؛ ولذا ترى نفسك عاجزاً مبرجلاً ، وهذه هى الحقيقة يا فتى . . . لقد سرقتك السكين ، وفاتك القطار ، وما وقوفك الآن تحسب أنك تملك الاختيار وإصدار قرار إلا من قبيل حلاوة الروح . . . ! لقد تلاشت ريحك يا هذا ، وكان

ماكان ، وصرت بضعة من رتيبة . . .

– خيبك الله ! لقد سددت مسالك الدنيا فى وجهى !

– لقد صارحتك بالحقيقة وأنت بعد ذلك حر . . .

– والعمل يا شيخ ؟

– قلت لك رتب أمورك على هذا الأساس ، رتب أمورك على أنك منها وبها ، واجتهد ألا تلفظك فى حركة زفير أو فى نوبة اختناق ؛ فإنك ستخرج خائراً محطماً . . . نفاية من الكربون لا قيمة لها ولا اعتبار . . . ! اجتهد أن تثبت وتتغلغل فى الدماء ، وتلمع فى الشفاه والوجنات ؛ حتى لا تحترق ! فالمسألة الآن مسألة حياة أو موت ، ألم تقل وأنت تنهض من النوم : « يظهر أنه آن الأوان ! » أعلم أنك كنت تعنى أنه آن لك أن تواجه العاصفة بصراحة وحزم – فافعل !

ووقف أمام الدار ، وترجل من السيارة يحمل هدية حورية ، وكانت قامته مشدودة أكثر من المعتاد وهو يصعد السلم المعتم . . .

مع السلامة . . .

صعد زكى السلم متهللاً معولاً أن تكون ضجته فى هذه المرة أكثر من كل مرة ، لابد ! لابد ! ولكن هذه النية لم تثبت إلى أكثر من قمة السلم ، فما إن وجدها واقفة هناك فى استقباله حتى بخرت الضجة فى حلقه ، وبدا فى صمته كالمأخوذ . . . وماكان خفوته ليفوت رتيبة ، فسلمت عليه وهى تتطلع إلى وجهه كالمتسائلة ، وأوجست أن يكون أصابه من جهتها تغير : كأن يكون اعتزم مثلاً العدول عن طريقته فى التبسط والمضاحكة ، أو من يدرى لعل «الأخرى» نغصت عليه عيشه لما أحسته من اهتمامه المفرط بأمها وبها ، وقلوب الإناث ملهمة إلى مكان الخطر . ؟

ورأت وجهه يحمر تحت نظرتها المتسائلة احمراراً يسيراً جداً فى

الحقيقة . ولكنه كان كافياً كى تفطن إليه عينها الفاحصة وقلبها الوامق . فحدثتها نفسها أنها أصابت كبد الحقيقة ، وارتجفت حشاها رجفة لم تعهدها فى عمرها كثيراً : رجفة السرور العميق الجارف لأن بوادر صاحبها لابد أنها كانت من الوضوح بحيث حركت غيرة «الأخرى» ، ولم تكن قد سمتها غريمتها صراحة بعد ، وإن خطرت ببالها بين شواغل ذلك النهار فى معرض السخط الذى تموهه لنفسها بالازدراء ، وأشرق وجهها بأكثر من أشواق الترحيب والسرور المعتاد لمقدمه ، وهى تصحبه إلى حجرة أمها ، وتحدثه عن بوادر الصحة والعافية لديها ، وقد صارت هى الصاخبة فى الحديث هذه المرة ، وكأنما رثاطها هذا مرجعه كله إلى تحسن صحة المريضة العجوز . . .

وتنفس زكى فى ارتياح حين سأل عن « سى عز الدين » فقيل له : إنه خرج ؛ ولم تلتقط أذنه المعاذير التى أطلقتها العجوز وابنتها لتخلفه عن استقباله ؛ فقد كان زكى مشغولاً بما أحسه من الراحة لغيابه ، ثم هز ضميره له سبابته فى الهواء مؤنباً ، ولكن فى ترفق وإغضاء كالتواطؤ :

– هذه أيها الفتى علامة لا تخيب على أنك تدرى فى أعماقك أنك تدخل ها هنا دخول الذئب الساطى على الشاة ، ينهلل لغياب الكلب الحارس عن الحظيرة المفتوحة الأبواب . . !

وبلع زكى ريقه ، واندفع يستحث خفة روحه ، فانصبت كثرتها على العجوز كأن ليس له فى ابنتها مأرب ، وكأنه لا يعنيها بما يعرضه من أفانين حديثه ونكاته التى كانت تهتز لها رتيبة ضاحكة بجسمها كله فى غير

ما احتجاز .

وكان ينتهز فرصة انطلاقتها بالضحك ، فيحول وجهه عن العجوز إليها ، ويتعمد أن يجيل فيها نظره الثاقب خلسة ، متسقطاً العيوب كأنه يريد أن يثبت لضميره وذهنه المستريب أنه ليس مخدوعاً ولا غرًّا غافلاً ؛ فها هو ذا يرى بروز العروق فى رقبتها ، والخطوط الأفقية فيها واشية ببوادر الذبول فى شبابها الريق ، وها هو ذا يرى بروز عروق يديها زرقاء اللون ؛ فالحق أن جميع عروقها ظاهرة فى أنحاء جسدها عموماً ، وبطنها ليس بالصغير ، كلا على التحقيق ! إنها لم تعد كاعباً من اللواتى « عليهن أغصان الشباب تمتد » . . .

هذا كله واضح لعينيه ، بل يكاد يتحسسه بعضلات عينيه هاتين اللتين حذقتا تحسس الأجساد واستكناه خفايا الأمراض من ظواهر الأعراض ، وأن هذا الجانب الواعى من ذهنه يعجب : أى شىء فيها دون حسان الأرض يسبيه ؟ ولكنه مع هذا موقن من ولوعه بها بالغاً ما بلغت أفكاره وبالغة ما بلغت مقاومته !

وتهكم بنفسه تهكماً عنيفاً وهو يتطلع باحثاً عن مسرى ريحه فى بدنها هذا ، أوليس يزعم لنفسه أنه « بضعة من هواء » تنفسته هذه المرأة ولم تطلقه ؟ وأنه لهذا مفتون بها مَسْجُون فى طرف أنفها الذى يرتجف محمرًّا وهى تضحك ؟ ها هى ذى تتمخط وقد دمعت عيناها ! عسى ألا يكون قد خرج إلى منديلها فيما استودعته !

ولمحته وهو يتفحصها بنظره ، وفطنت إلى ما فى نظرته من إلحاح

وتطلع وتساؤل ، وتوقفت عن الضحك ، وثبتت عينيها فى عينيه لحظة قصيرة ، فرأته يرتبك ويحول عينيه – ثم نسى بقية العبارة التى كان يتفوه بها فاحتقن وجهه ارتباكاً ، وارتجفت حشاها رجفة أخرى حتى القرار لهذه الآية الجديدة ، هو يرتج عليه كالعذارى ! تلك والله خارقة من الأعاجيب !

وقالت له فى خبث :

– ترى من التى أكلت عقلك ؟ لا هنئت به !

فأسعفته بديهته وصاح :

– ابصقى من فمك يا شيخة ! أذكرتنى بها كافأك الله ! عروسى أين عروسى ؟ أين حورية . . . ؟ لقد جئتها بهدية .

ورفع الصندوق بيديه كلتيهما أمام صدره كالمباهى وقد تراجع بذقنه إلى الخلف وحدق بعينيه فى الصندوق ، فضحكت المرأتان وصاحت رتيبة تنادى الفتاة التى كانت فى الحجرة المجاورة طيلة الوقت تقطع منديلها بأسنانها مضطربة وأصداء الضحك تترامى إليها من غير أن تتبين شيئاً من الحديث الدائر ، ولا تجسر على الدخول ، ولا تستقر قائمة إلى النافذة وقاعدة على الأريكة .

ودخلت حورية تتعثر ومنديلها يتلقى تشنج أصابعها ، ونهض زكى فانحنى لها ، وقدم صندوق الشكولاتة ، وفضت حورية الورق ، وشعرت بخيبة أمل ، فقد كانت تتوقع صندوقاً من الصينى « السيفر » مما يقدم لنعرائس حقيقة فى هذه المناسبات . ثم أسرعت تلوم نفسها متذكرة أن

الوقت ضيق ، وليس من المعقول أن توجد فى هذا الريف مثل هذه السلعة الفاخرة !

ويجد زكى الفرصة مواتية ليتمادى فى التشاغل بمداعبتها ، فيمط شفته السفلى كالمستاء ويقول بصوت من أشفى على البكاء :

– ألا قبلة تجبرين بها خاطر الواله المسكين ؟

وينحنى فوقها ، ويضع إصبعه على خده ، ويحمر وجه حورية ، وتجرى خارجة من الحجرة من غير أن تجسر على النظر إليه ، وتجلس على الأريكة وحدها ، وتضع العلبة المعدنية فى حجرها ، وتمر على حافاتها بأصابعها وهى شاردة النظرات لا تتبين الرسم الملون المنقوش فوقها وأصداء الضحكات من الحجرة الأخرى ترن فى أذنيها ، وشعرت بالسخط الماحق على أبيها ، لأنه لم ينتظر حضور زكى : فمن يدرى ماذا كان يتم الليلة لو كان حاضراً ولاسيما أنه سيسافر غداً إلى القاهرة ؟

– خسارة ! خسارة . . . !

وامتلأت نفسها كلها بالحقد على بلاهة الآباء المفرطين الحمقى الذين لا يقدرون المسئولية ، واغرورقت عيناها بالدموع .

ثم تناهت إليها حركة فى الصالة ، فأدركت أنه منصرف ، وأطلت من موضعها المظلم – ولم تكن تنبهت لسدول الظلام – فرأت أمها ترفع فى يدها المصباح ، وتتبع زكى إلى السلم .

وكانت رتيبة قد استيقنت أن صاحبها برح به الأمر كما برح بها ، واستيقنت – إذ شاءت أن تستيقن – أنه يتعرض من الأخرى لكدر

وتنغيص لا ينالها مثلها من زوجها لما فى النساء – ولاسيما من على شاكلة تلك الأخرى – من فطنة خبيثة لا نظير لها عند معظم الرجال ، ولاسيما من على شاكلة « سى عز الدين » ، فأخذتها لزكى رقة وحنين وكأن قلبها لا يطاوعها أن تسلمه إلى ذلك العناء والتكدير من أجلها ، فأرادت أن توصله بالمصباح إلى تحت ، وأخذ يراجعها فى ذلك . . .

وربتت رتيبة على كتفه اليسرى بيسراها فى حنان مكظوم ارتجفت به يدها كأنها تودع فى تلك الحركة اختزال ضمة كاملة كبحتها دون غايتها من الأحضان جميع ما فى كيانها من اللجم وقالت بصوت مضعضع :

– هذا أقل من قدرك . . .

وانتفضت الصغيرة فى مكمنها المظلم وقد اقشعر بدنها من غير أن تدرك لذلك سبباً واضحاً وهى ترى تلك الحركة على ما فى مظهرها من براءة لا تعب .

– بل يجب أن أنير لك طريقك .

فقال ضاحكاً فى رنين عصبى حاد كإعوال الأرواح المحبوسة :

– كلا ، أليس فى نورى ما يكفى ؟

وتراجع بذقنه ونفخ صدره ، ونظر إليها بطرف عينه ، فتضاحكت وقالت وهى تنزل درجتين :

– والله . . .

– والله لا . . هه ! هف !

ونفخ المصباح فسادت الظلمة السلم . . . وبسرعة البرق انقض

فاختلس منها قبلة خاطفة كرشفة العصفور . كلا ! بل كنقرة الصقر ، ووقعت القبلة على أذنها من الخلف ، ثم اقتحم السلم يهبطه كالهارب من مطاردة الشياطين !

وسمعت الصغيرة وقع نزوله السريع فى الظلام ، ولم تسمع حركة أمها التى ظلت واقفة حيث هى لا يصدر عنها حس ، لأن قلب رتيبة على خفقانه الصاخب اللاهث لم يستطع أن يصل إلى أذنى حورية الجاثمة على الأريكة فى الحجرة الأخرى . . .

. . . وانصفق الباب . . .

وسمعت حورية أمها تقول بعد انصفاق الباب بصوت خافت خفوت النجوى :

– مع السلامة .

ثم سمعت وقع قدميها تصعد الدرجات القليلة التى كانت قد هبطتها . تصعدها فى بطء شديد وكأنها تنتزع قدميها انتزاعاً ، وتجر ساقيها جرًّا . . . !

ووقفت حورية فى النافذة تتبع بخيالها فى ظلمة المساء سيارة زكى ، فلم تنتبه لصوت أمها وهى تناديها :

– الكبريت يا حورية ؛ لأشعل المصباح . . .

فاضطرت رتيبة أن تذهب بنفسها تتحسس فى المطبخ المظلم موضع علبة الثقاب ، فانقلبت آنية الطعام المطبوخ .

وتنبهت حورية لضجة وقوع الآنية النحاسية ، فأسرعت لتجد أمها

تصنح المصباح والكفتة بالصلصة مراقة على الأرض كأنها بركة صغيرة من الدم . . . !

– ما هذا يا ماما . . . ؟ سكبت عشاء أبى . .

فقالت رتيبة بضيق وتأفف :

– قطيعة تقطع الطبيخ وسنينه . . . لا أدرى لماذا يتشبث أبوك دون الناس جميعاً بأن يتعشى طعاماً مطبوخاً ؟

وكانت أول مرة تصرح فيها رتيبة بانتقاد « سى عز الدين » ، وتنبهت لهذا ، فحولت السخط إلى بهانة :

– وبهانة هى الأخرى : هل كان لابد أن تذهب الليلة إلى دارها ؛ فكأنما أكلتها الغربة والأشواق إلى أولادها ؟ هل كانت ستجرهم القطط ؟

ومع السلامة

مسح «سى عز الدين» باللقمة بقية البيض المقلى فى طبقه ، وحشا به فمه فى شهية قوية ، وقال وقد رفع حاجبيه وعيناه تجولان فتذرعان المائدة طولاً وعرضاً كأنه يتسقط بقية يحشو بها فمه وبطنه ، ثم بدأ يلوك لقمة من الجبن القديم كمن يختبر طعمها بعد البيض قال :

– هه . . ! ألم تجد القطة إلا حلة عشائى لتسكبها على البلاط ؟ شىء بارد . . . !

ولم ينتظر من ربيبة جواباً ؛ ولذا لم يستغرب لبطئها عليه فى الجواب ، والحق أنه كان يسلى نفسه بالكلام كعادته وهو يأكل ، ولو أنه استبطأ جوابها ورفع إليها عينيه لرأى سهوماً واحمراراً ينبئ عن ارتباك وشىء من الخجل ؛ فهى من المرات القليلة جداً التى كذبت فيها عليه ، وهل كان

بوسعها أن تقول له : إنها – لا القطة – التى سكبت الطعام ؟ وإن السبب هو الظلام ؟ وإن الظلام كان سببه انطفاء المصباح ؟ . . .

وكان هذا الخاطر كافياً لاشتداد ضربات قلبها مع أن انطفاء المصباح كان أمراً لا يحتاج إلى تدقيق فى التفسير ؛ فهبة هواء كافية جداً لإطفائه ، وما أكثر ما يحدث ذلك فى الريف ، ولكن من على رأسه «بطحة» لابد أن يتحسسها . . .

وكأنما اختفى «سى عز الدين» ، وتلاشى صوت مضغه المرتفع ، وهى تغوص فى صخب قلبها ونمال الدماء التى تدافعت فى شرايينها كأنها أضواء الصواريخ فى مهرجان عربيد ، وعضت على شفتها وهى تمضغ لقمتها على مهل كأنما لترد أحاسيسها عن غلوائها ، وغاصت برأسها قليلاً بين كتفيها كأنما تريد أن تحجب عن الأنظار موقع شفتيه على أذنها هاهنا من وراء . . .

لم تكن ساخنة تلك القبلة ولا محرقة ولا عميقة ، ولكن دغدغتها لم تزل تتمشى فى أوصالها وأعطافها ؛ حتى لتهم أن تهيم على وجهها فى دجى الليل هذا وحيدة لا تبتغى مقصداً معيناً وراء هذا الانطلاق والهيمان ؛ عسى أن تذوب فى فحمة الليل أو أنسام الهواء أو ومضات النجوم . . . ثم ترفع عقيرتها بالغناء والكون مصغ وصوتها يعلو ويعلو ، ويعلو ؛ حتى يستوعب صوتها الكون كله ، ويستنفد كيانها كله ، فتستريح عندئذ بذلك الإنطلاق الذى سامت الغناء . . .

وتنهدت فى أنة عميقة كانت قصارى ما استطاعته من ضروب

الانطلاق ، ونبهتها رنة تجشئة وهو ينهض عن المائدة حامدا الله ومثنيا على نعماه . . .

وغسلت يديها على عجل ، ولم تدخل الأطباق إلى المطبخ وتركتها ريثما تأتى بهانة فى بكرة الصباح ، وارتمت على الحشية فوق الأرض حيث تفترش هى وزوجها ما بين الأريكة والنافذة التى تعلوها القلة الحمراء ، ووضعت يديها تحت رأسها وهى راقدة على ظهرها وعيناها تحدقان فى سماء الليل الصافية ، وقد أحست لنجومها وجداً وهوى ، ووجدت لبرودة الحشية والوسادة لذة تخفف من برح سخونة دماها . وابتسمت ، وأغمضت عينيها . . . وودت لو نسيتها الدنيا ونسيت هى الدنيا ، وتركت هكذا وقتاً ليس له انقضاء . . .

وتنحنح عز الدين وهو يسلت الشبشب من قدميه عند العتبة ، ويتحفز للوثوب إلى الحشية فى نشاط من يستقبل أمراً مرتقباً مشهوداً ، وتململت فى رقدتها وأغمضت عينيها وتأوهت بلا افتعال مقصود ، ونأت عنه بجانبها من غير أن تتحرك حركة واضحة . . .

ورقد بجوارها ، وتخشبت فى مكانها ، وتنحنح ، ثم وضع يده عليها ، ففتحت عينيها بتباطؤ ، وقالت متغابية وهى تعصر جبهتها بيدها :

– يا ساتر ! . . .

– مالك . . . ؟

– الصداع ! صحيح يا سى عز ، من عنده مريض هو المريض حقًا . . . واهاً لى ! كل أنملة فى جسمى كأن بها منشاراً . . . أين كان

لى كل هذا ؟ لكأنى بالسكين قد سرقتنى فلم أشعر بنفسى إلى أن حل علىّ التعب مرة واحدة . ربنا كبير ! أعطانى القوة إلى أن نفخ فى صورتها . . .

وقبلت يدها ظهراً لبطن فى خشوع جعل يد سى عز تنكمش وترعوى عن زحفها غير المحتشم ، وأحست بهذه اليد تسترخى فوق فخذها ، فرقص قلبها سروراً ، وهل يمكن أن تطيق ثقله فى هذه الساعة ؟ ليته يتركها وشأنها !

ولم تطل فرحتها كثيراً ، لأن الحياة دبت مرة أخرى فى أصابعه ، وجعلت هذه الأصابع تعبث من فوق القميص بحرف سروالها ، ثم دفعها فى جنبها دفعة خفيفة وقال :

– ياشيخة . . . ! روق امال . . . حالاً سيذهب عنك الصداع . . . !

وحاول أن يدغدغ جنبها ، فضحكت وتلوت ، ثم أسرعت تقول :

– والنبى يا سى عز . . . الضحكة كأنها خارجة من جمجمة رأسى من فوق !

وعادت للجمود ، وجمد بجوارها ، وحاول أن ينام ، ولكنه ظل يتقلب ، واختلس نظرة إليها فتصنعت النوم ، وهزها فزامت متناومة وكأنه جمع رأيه أخيراً على أمر ، فلم يبال نومها ، وألقى بثقله عليها وهى ماضية فى تناومها ، وانطلقت براكين الغيظ فى نفسه من هذا الصداع الذى تعمد أن يفسد عليه ليلته وهو على وشك السفر ؛ فكأنه تآمر هو

والقطة التى قلبت حلة عشائه فى هذه الليلة النكراء . . . !

وزادت سلبيتها التامة من حسرته وهو يزفر وينقلب على جنبه ثم يستسلم للغطيط . . .

وزايلها شيء من توتر عضلاتها عندما سمعت غطيطه المنتظم ، ولكن أعصابها ظلت تصرخ من داخلها تحت عبء هذا الإنهاك الجارح لوجدانها . لقد كانت كضحايا محاكم التفتيش الذين تربط أيديهم إلى جواد ، وأرجلهم إلى جواد آخر ، ثم يساط الجوادان ، فيذهب كل منهما فى مذهب ، وتتمزق الجثة شر ممزق . . . !

وتقلبت ، وتنهدت ، وحاولت أن تنام . ولكن النجوم أخذت تومئ إليها فى سواد السماء الشفاف ، ونهضت قائمة لتشرب من القلة الحمراء ، ثم أسندت رأسها إلى الزجاج البارد فاستشعرت لبرودته راحة ، فتركت نفسها للحصان الذى انفرد بها ، بعد أن استسلم الحصان الآخر من خلفها للكرى وقد استنفدت العدوة الجامحة قصارى قواه . . .

ولم تتبين لسبحتها معالم واضحة ، ولكن الراحة سرت إلى نفسها رويداً ، وأشرق وجهها بمثل نضارة الطفولة ، وهى تتثاءب وقد دب النعاس إلى أوصالها مصيخة لصرير جنادب الحقل ونقيق الضفادع فى نغماتها الرتيبة رتابة بلهاء . . .

ورقدت على الحشية بعد أن تيقنت ضبط المنبه على الساعة الخامسة ، ولو كانت دقات المنبه تنبئ عن قلب لفطن إلى حنان لمساتها وكأنها تنيط به أملاً لها تستحلفه ألا يخيب . . .

وطاف بذهنها أخيراً سؤال واحد واضح وهي ترنق للنوم :

– ترى ماذا يحمل لها الغد ؟ . . .

ولم تفكر طويلاً كي تقول لنفسها وهي ترتمي في أحضان الكرى :

– لا أدري . . . ! وما أهمية هذا ؟ . . . ألست هاهنا باقية أياماً أخرى . . . وأنه سيرحل غداً ؟ سيرحل . . . سيرحل . . .

* * *

ورن جرس المنبه ، وأسرعت تهز « سي عز الدين » وبصوت مضعضع تناديه ليقوم . . . وقام قاعداً ، وتأوهت ، وشكت من أوجاع مفاصلها كلها ، وأعادت ربط المنديل فوق حاجبيها . . .

وتأذى « سي عز الدين » كأنه مسئول عن هذا كله . . . وسألها :

– وبعد ؟

– لا تقلق عليّ ، توكل أنت على الله من غير شر . وخذ حورية معك .

فقال بدهشة :

– حورية ؟ ولكنها تريد أن تبقى معك هنا بضعة أيام . . . قالت لي : إن الريف أعجبها وتريد أن تبقى . . .

وتأوهت رتيبة مرة أخرى وقالت :

– يا جنبي ! . . . وهل أنا في حالة تسمح برعاية الصغار أيضاً ؟ أليس بحسبي هم الكبار يا « سي عز » . . . ؟

وهز « سي عز » رأسه مقتنعاً ، وقام ليغتسل . . . وتحاملت رتيبة على

نفسها وأيقظت حورية . وصحت البنت مذعورة ، وعقدت الدهشة لسانها ، ولكن الوقت لم يتسع أمامها للمناقشة ؛ لأن أباها شخط فيها شخطة مضرية . ولأن عبد الرسول طرق الباب الكبير ، وصاح من الخارج بصوته المزعج :

– الدوكار جاهز . . . الميعاد قرب . . .

وعندئذ لكمها أبوها ليستحثها على الإسراع ، وأتم ارتداء ثيابه على عجل ، ووقفت رتيبة تودعها على السلم وفى يدها المصباح وتقول بنبرة تسيل حناناً وحسرة :

– ارفع الياقة على رقبتك يا « سى عزه » من طراوة الصبح . . . أهكذا لا تشرب ولو فنجان شاى ؟ . . . مع السلامة . . .

وانصفق الباب ، ودرجت العجلات على أرض الطريق ، وأدارت سلم ظهرها ببطء ، وتمطت وتنفست نفساً عميقاً ، وانطرحت على الحشية لتنام بعد أن نفخت بفمها المصباح . . .

ظمآن

لم يفكر زكى فيما فعل إلى أن أدار محرك سيارته وهو كالمسوع ، وأطلقها وكأنه يطلق ساقيه للريح . . .

– ما هذا الذى فعلت أيها المجنون ؟

وهز رأسه هزة هى هزة العارف الفاهم أكثر منها هزة المغضى أو المتواطئ .

– يعلمونك ، ومهما يعلموك يا زكى فأنت فى النهاية ثور ابن ثور ! جحش ابن جحش كابراً عن كابر يا ابن أبى زعبوط ! أين علمك يا ولد ودرايتك بخفايا هذا الحيوان العجيب المتناقض التركيب الذى تنتمى إلى سلالته البلهاء ؟ حياء ما بعده حياء ، واحتشام بلغ حد الاضطراب والتلعثم . . . وينطفئ المصباح ، فيبرز فى الحال هذا اللص الوقح المختفى

فى داخلك ليسطو على رقبة المرأة ، ويضعك بقضك وقضيضك ، وكيانك وأخلاقك ومآلك . . . أمام أمر واقع . . .

وشعر بجوفه يكاد يحترق ، لا يدرى : أمن الغيظ ؟ أم من أى شىء . . ؟ إنه لا يكتم نفسه ما يضطرب فى أعماقه من تلذذ بتلك القبلة . لذة عربيدة ، فهذا الولد الشقى « المزبلح » الرابض فى الداخل يكاد يجن فرحاً بما ظفر به ، فهو طول عمره ولد شقى لا يصمد أمام غواية . . . ولسانه ليس قصيراً كما يبدو :

– هيه . . . ! أكنت تفضل أن تعود الليلة وذيلك بين رجليك كالكلب المبلول ؟ أكنت ترضى عن نفسك ؟ أمرك عجب ! أنا وقح داعر . . . هذا صحيح . ولكنك منافق ! تريد أن تتلذذ بانتصاراتى ومغانمى ، وأن تحتفظ لنفسك بحق الاعتراض والاستنكار باخليفة الشيخ زيان ! أثمرت والله فيك تربيته العصماء . . !

وتراءى النور الأحمر فوق بداية المزلقان . فأوقف السيارة على مضض :

– وبعد فى هذا الظمأ الملعون ؟

– طبعاً . إنه دخان المعركة التى تدور هنا فى جوفك بين صدق ومكابرتك .

– اسكت يا ثور . . . أدخلتنى فى متاهة . . .

– بل أدخلتك مدخل صدق . . .

ونظر متأففاً يتظاهر بانتظار ظهور القطار كى تفتح البوابة . فلم ير له

أثراً ، ولمح زيراً بجوار المزلقان يشرب منه السابلة من الفلاحين والسائقين وعمال الدريسة . . .

– والله يا ثور لأسقينك مما يشرب منه هؤلاء الثيران !

وفتح باب سيارته بحنق ، وهجم على الزير فى عناد ، وتجرع الكوز الصدئ حتى آخره ، فوجد ماءه بارداً لطيفاً قضت برودته العذبة على شواظ السخط ، فلم يستطع أن يسترد حفيظته على ذلك الولد العفريت ، وبدأ ينظر إليه فى إغضاء ودود .

ومرق القطار ، وانفتحت البوابة ، فخف إلى عجلة القيادة ، وانطلق بروح جديدة إلى المدينة الراقدة فى الظلام . . .

وعند مشارفها بدأ يشعر بالضيق وأنه لن يطيق الليلة دخول المستشفى ، وهون الأمر على نفسه قائلاً : إنه ليست لديه حالات خطرة . . . واستراح لقضاء الليلة فى بيته الذى يفصله عن المستشفى ثلاثة شوارع ، والذى لا يلم به إلا نادراً ، وحينما يستقبل ضيوفاً يتحتم عليه أن يقيم لهم مأدبة أو يقضى معهم سهرة . . .

وما إن دخل البيت ، واستقبل فيه العزلة حتى اتخذت المسألة شكلاً آخر ، وبدأ الظمأ يداعب حلقه من جديد ، فمط شفته السفلى وهو يهز رأسه .

– البلوى أنى محيط بكل حيل هذا الحيوان العجيب ، ابن أبى زعبوط . . . صحبة قديمة . . . !

وبحث عن شىء يشربه ، شىء غير الماء . . .

– أنا أعرف ابن الكلب هذا ! وداوني بالتي كانت هي الداء . النار للنار .

وألقى ثيابه فبعثرها في الحجرة كأنه يغيظ نفسه ، ثم جلس إلى الزجاجة ، وتجرع كأساً طافحة ، ومص شفته العليا بالسفلى ونظر إلى الزجاجة وقال :

– وبعد ؟ ما العمل الآن بعد أن عملها «ابن الكلب» ؟

– أنت أردت هذا ، ولكنك كنت جباناً ، فاستحييت ثم أطفأت المصباح . . .

– أبداً والله . . . لم أطفئه وفي نيتي شيء من هذا . . .

– أصدقك بلا حاجة إلى يمين . . . أنا متيقن أنك لم تطفئ المصباح لهذا الغرض ، ولكنك نسيت أني كنت هناك محبوساً لأني كالوطاويط التي كنت تصيدها من الدوار القديم لا أستطيع أن أخرج في النور . . . فلما أطفأته بخيبتك مجاملة وترفقاً بها انطلقت أنا . . . ولا تنكر أنك ذهبت إلى هناك على سُنتي . . . ثم ركبك خجلك . . . وكنت طول الوقت تتمزق شوقاً إليها . . . حتى كدت تنفق كالحمار حسرة عليها . . .

وجف ريقه ولم يستطع أن يكابر ، وملأ كأساً ثانية بأناة ، ثم شرب منها رشفة ووضعها برفق على المائدة . . . وجعل ينقر على الكأس بأظافره ، ثم أشعل سيجارة ، وحاول أن يسمع الإذاعة ، ولكنه لم يلبث أن سئمها فأغلق المذياع .

– شيء سخيف . . . ! أريد ولا أريد ! ذهبت وأنا أريد ، ولكن ابنتها طولها ، وصورتها كانت كافية لإفساد كل شيء . لم آخذ وأنا صغير حمامة من على أفراخها ؛ فما حاجتي اليوم إلى ذلك وأنا لست محروماً ؟ . . . طبعاً لست محروماً . . . وعندي عملي ، ومرضاي . . . ثم هل أنا غلام مراهق حتى أصدق أن الحياة الحب والحب الحياة . . . وسائر هذا الكلام الفارغ ؟ هذا مرض وهم . . . وأنت طول عمرك تحارب الأوهام يا زنديق . فهل تغرق فيها على آخر العمر ؟

ونهض واقفاً وراح يتمشى في الحجرة ، وهم أن يتناول كأساً ثالثة ، ولكنه أحس بالجوع ، وبحث في المطبخ عن شيء يأكله فلم يجد . . . وتذكر عشاءه الذي ينتظره عبثاً في المستشفى :

– ولم لا ؟ لماذا لا أذهب وأمر على المرضى ، وآكل . . . ثم حمارتك العرجاء ولا الغزل على السلم ، «واديني بوسة أنا زي أخوكي» . . .

وراح يدندن بها صافراً ، وهو يرتدي ثيابه ، وينقصع هازئاً من رومانتيكيته الطارئة . . .

– والله كبرت وخرفت يا بن أبي زعبوط . . .

وأخذ طريقه إلى المستشفى . . .

ووجده المرضى أشد زئاطاً من عادته ، ووقف طويلاً عند سرير «أم فاطمة» التي نيفت على الثمانين يستحلفها أن ترضى به عريساً ما دام قد رد إليها الحياة ، والمرأة تضحك عن فمها الأدرد وتدعو له بالستر . . .

والتقط الكلمة .

وعاد إلى حجرته وهو يدندن :

– الستر . . . يا سلام على الستر . . .

وطوح بمعطفه بعيداً ، ونادى مهجة قائلاً :

– إلىّ يا ستر . . .

وقرصها من خديها فى وقت واحد بعد أن أغلق الباب وجعل يدندن وهو يلعب حاجبيه :

– ستر وغطا . . . يا مقطقطه . . . !

وجلس على حرف الفراش ، وجعل يرقبها وهى تخلع ثيابها فى أناة وترتيب على عادتها فى هدوء وثبات ، فاستولى عليه وجوم وانقباض بعد أن هدأت الضجة الصاخبة التى أثارها ليمارى نفسه ، وتكشفت فى هذا الصمت عن وحشة ، ولا يدرى لماذا خطر بباله عندئذ منظر ولد صغير مقرور فى قرية موحشة والمطر ينهمر عليه فى سكون الليل . . . ؟

وأحس برغبة شديدة فى البكاء . طغت عليها رغبة أشد فى النوم . . . وكأن فأساً قد فلقت دماغه نصفين من عمق الصداع !

ولم يحس باهتزاز الفراش وهى تعلوه إلى جواره إلا إحساساً غامضاً جدًّا . وتنبه وقال لها بصوت مضعضع :

– عطشان !

وناولته الماء ، وشرب من غير أن يفتح عينيه ، ثم انطرح واستغرقه النوم . . .

الجميز

تنبه قبيل الفجر على رنين جرس التليفون ، ورفع المسماع والصداع يكاد يطير عينيه من محجريهما ، فوضع يده الأخرى على رأسه كأنه يريد أن يمنع يافوخه من الانفجار ، ولما وضع المسماع جعل يدلك عارضيه ، وسمع صوتها من خلفه تقول له :

– ما الخبر ؟

فقال لها باقتضاب :

– الحاج إسماعيل . . . انتكس . . . لابد أنه أكل شيئاً .

ورمقها بنظرة خاطفة وهي نصف راقدة ، وقد برز ثدياها من فتحة قميصها ، وتقوست عجيزتها كأنها جاموسة جاثمة فوق مذود ، واستطرد قائلاً :

– . . . رجل «طفس» . . . «رمرام» . . .

ولوى شفته ممتعضاً ، ثم أسرع يرتدى ثيابه على عجل ويحمل حقيبته ، ولم ينس أن يتناول قرصاً من الأسبيرين قبل أن يغادر الحجرة صامتاً شارد اللب إلى أن نبهه وهو يهمّ بإغلاق الباب وراءه صوتها ينبعث من السرير وقد مالت إلى الأمام ، فزاد ثدياها بروزاً من فتحة القميص :

– . . . بالسلامة .

فكأنما أدهشه أن يسمع صوتاً ينبعث من فراشه بعد أن غادره ، بيد أنه تذكر ما نسيه ، وهز لها رأسه وعلى فمه ابتسامة لم يكن لها أثر فى عينيه الواجمتين ، وهبط السلم مسرعاً . . .

– هه . . ! لم تيئس ، ولم تعد إلى حجرتها . . هه ! لعلها علقت على الفجر أملاً خيّبه صدر الليل . . . !

ورفت على فمه ابتسامة باهتة وهو يقول لنفسه :

– لا شك أنها تدعو الآن على الحاج إسماعيل لأنه اختار لنكسته هذا الوقت السخيف . . .

وصافحت وجهه أنسام الليل الرطيبة ، متطلع إلى السماء التى تأهبت لاستقبال الفجر الوليد ، واستوقفه منظرها المهيب البهيج لحظة ، ثم لم يلبث أن زام مستنكراً وهو يتجه إلى باب الجراج .

– يالك من لكع ! الرجل يجود بأنفاسه البخراء على صدر زوجته الإسكندرانية الخدلجة التى تزوجها منذ أقل من عام ، وأنت تضيع الوقت فى النظر إلى السماء ! . . . أسرع يا رجل حتى لا

يفسد الدمع شرطة الكحل فى عينيها النجلاوين ، ويتشحور بالقنوات السوداء أحمر خديها الملعلع !

وأدار محرك السيارة وخرج بها القهقرى . . .

– جاموسة أخرى بيضاء سمينة تليق ب . . .

وقطب حاجبيه فجأة :

– بماذا أيها الدغف ؟ أليست كجاموستك السوداء !

وعادت عروق عارضيه إلى الانتفاض ، وفلقت الفأس الملعونة يافوخه مرة أخرى . . .

– تبًّا لها ! ما من ليلة قضتها منذ ثلاث سنوات فى حجرتها . . . الحمد لله إن بابا يفصل بين السكن وبقية المستشفى .

وهز كتفيه استهانة وتهكماً .

– باب حقًّا ! كأن الجميع لا يعرفون أنها تنام فى فراشى كل ليله وكل قيلولة . . . ومع هذا . . هئ ! تصر على أن تذهب فى الصباح إلى حجرتها ، وتستلقى فى فراشها ، وتدق الجرس للتمرجية كى تدخل إليها بقدح الشاى . . . وتتكرر التمثيلية كل يوم . . كأنها لا تدرى أن التمرجية تضحك منها فى سرها . . . ولا سيما فى أيام الصيف حينما يكون قميصها نديًّا بالعرق ، وملاءة الفراش من تحتها جافة كالحطب !

وسرى عنه الضحك ، ولكنه لم يسترسل فى ضحكته طويلاً . . . وشرخ أذنه صوت صراخ ثاقب ، والتفت إلى اليسار ، حيث مصدر الصراخ ، ليرى بيت الحاج إسماعيل فى وسط ضيعته ، وقد فتحت

نوافذه على مصاريعها وأطلت منه الجلاليب السوداء . . .

وأوقف السيارة ، ثم دار بها عائداً من حيث أتى وعلى فمه ابتسامة واهنة صفراء :

– وقعت الواقعة ، وساح الكحل على الأحمر يا جميل . . . !

واستقبلته فى اتجاه الشرق وهو عائد أسراب الحمام تنطلق من أبراجها البيضاء ، وزقزقة العصافير وجماعات الفلاحين متجهين إلى حقولهم والفلاحات حاملات الجرار . . . ورأى فلاحاً يسوق حماره وقد حمل عليه حمولة من الجميز ، فذهبت نفسه إليه ، وأوقف السيارة على جسر الترعة ، واشترى منه ، وطفق يأكل ، وكأنه لم يعد يشغله من أمر الدنيا إلا ثأر له عند هذا الجميز . . . !

وأعقب الشبع لديه راحة أشبه بالطمأنينة ، وجلس يطل من نافذة سيارته على الماء المنساب فى رتابة وتشابه تحت بصره ، وأشعل سيجارة . ومع دخان السيجارة بدأت الخواطر مرة أخرى تفد على مسرح وجدانه ، ولكن فى هدوء هذه المرة كأنها أكلت هى أيضاً من جميزه وشبعت ، فلم تعد لديها حدتها الأولى . . .

– هل أنا أحبها ؟ ولماذا ؟ أليست شهوة ساعة كهذا الجميز ؟

وقطب حاجبيه ، ولم يستطع أن يكابر !

– كلا ، إنه ليس الشوق ، كلا ، فلست أتذكر ملامحها تماماً ، ولا أستطيع أن أستحضرها فى خيالى . . . ومع هذا أشعر أنى أريدها . إنى بحاجة إليها . . . كلا . ليس هذا هو السبب يا وقح ! إن « هذا » ربما

لا يحدث ، لم تخطر ببالى مطلقاً وأنا راقد مع مهجة . لم أغمض عينى وأتصورها كما كنت أتصور تلك الممثلة المغربية أو زوجة الحاج إسماعيل ، وأنا أعترف من جميز مهجة ملء شدقىّ ، لم تخطر لى قط ، ولم أتمنّ أن تكون بديلة من مهجة بجوارى أمس ، ولا هذا الصباح ، كل ما شعرت به ضيق بمهجة ورغبة فى أن أكون أنا هناك معها ، معها فقط ، وحسبى أن أكون معها . ولو بلا ملامسة . . . يكفى أن أحس أنها معى . . . !

ورمى السيجارة فى مجرى الماء وظل يتبعها نظره إلى أن حملها التيار ، وعندئذ فطن إلى أن التيار الذى كان يراه متراخياً أسرع فى الواقع مما كان يبدو لعينه ، وحركة السيجارة كشفت له عن مدى تدفقه الخفىّ . . . وتنهد :

- وكذلك أنا . . . لم أكتشف قوة هذا التيار الذى يبدو هادئاً حتى سقط فيه . . . سقط فيه ماذا . . . ؟

وتملكه الفزع للصورة التى خطرت بذهنه ، ولا يدرى من أين برزت فجأه ؟

- سقطت فيه رمة الجاموسة !

وسرت فى جسده قشعريرة ، فأسرع يدير محرك سيارته إلى المدينة ، ومن غير أن يراود نفسه عاد إلى بيته الخاص ، ودخل الحمام وكأنما خلت نفسه من كل ما يشغله إلا تجويد الاستحمام والاستمتاع بسخونة الماء وبخاره المتصاعد ، وقد أحس بأعصابه تسترخى ، وبعقله صحيفة بيضاء ليس فيها أثر لشىء ، وصار وجهه هادئاً هادئاً ،كأنه فى سمرته وهدوئه

صفحة ماء الترعة الحمراء . . .

وارتدى ثيابه ، ولم يجد نفسه يتأنق هذه المرة ، حتى كأنه يتعمد ألا يتأنق أو يلمع . . .

لم يكن يفكر فيما يصنع ، ولكنه كان يتحرك بهدوء وثبات كمن يسير على خطة مقررة رسمها له من يملك التقرير . . .

وأعد لنفسه كوباً من القهوة ، ثم أخذ سبيله إلى الضيعة . . .

شيء واحد أكيد

تقلبت فى مضجعها ، وفتحت عينيها لتجد الشمس تفترش الحجرة ، فأغلقتهما كرة أخرى وهى تتمطى ، لم يطل نعاسها أكثر من ساعتين إلا قليلاً ، ولكنها نهضت مجددة النشاط ، وأسرعت إلى حجرة أمها فألقت عليها تحية الصباح ، واستمعت إلى حديث بهانة التى عادت فى البكور وهى تصب الماء على وجه رتيبة ويديها ورتيبة لا تكاد تسمع من ذلك الحديث كله شيئاً . وإن رنّ اسم حورية فى أذنها جملة مرات ، فاختصرت رتيبة الحديث . وهى تجفف وجهها بأن ذكرت لبهانة أسباباً مرتجلة لرحيل الفتاة مع أبيها . وفرغت بعد ذلك للمرآة كى تسوى الفارق وهى تتمشط ، وانتقت بعد ذلك ثوبا لبسته فوق قميص نومها . وهى تنظر إلى المنبه ، وردت الطرف إلى المرآة ، وشاعت فى وجهها ابتسامة الرضا .

أمها من الحجرة الأخرى ترفع صوتها بسؤال . . . لعلها توجه إليها ذلك السؤال الذى استعادت الاهتمام بتوجيهه لنفسها ومن حولها فى كل يوم من أيام العافية :

– ماذا نأكل اليوم ؟

ولكن رتيبة فى شغل بدقات قلبها عن هذا السؤال . إنها تجيب عنه فى غير احتفال :

– أيما شىء . . .

جواب يشبه الجواب المعتاد عن ذلك السؤال فى جميع الأيام ، ولكنه لا يصدر اليوم ككل يوم عن عدم اهتمام بالحياة على وجه الإجمال ، بل عن فرط اهتمام بجليل من أمرها تهون فى جانبه سائر الأمور . . .

ودخلت تطفر فى خطوهـا إلى حجرة أمها فى حبور ظاهر ، فعانقتها وقبلتها قبلة هيام ، وكأنما قرأت دهشة – لا وجود لها فى الواقع – على وجه أمها ، فراحت تتقدم بين يدى فرحتها بالمعاذير :

– هذه يا أم علامة العافية ، ألست تهتمين إذن بالطعام ؟

فنظرت العجوز فى سذاجة إلى وجه ابنتها وقالت :

– ما عن طعامى سألت ، فأنى لى أن آكل مما تأكلون ؟

– والاهتمام بطعامنا ، أليس من علامات العافية ؟ لقد برئت الدجاجة الكبيرة فأطاقت الاهتمام بالتقاط الحب لدجاجاتها الصغار . . . !

وقبلت أمها قبلة كبيرة أخرى ذات صوت مدو وعينها تتطلع من فتحة النافذة إلى صفحة السماء . . . كأنها تطبع قبلتها على وجه الكون . . .

فرح غامر كشعاع الشمس ولكن بلا تفكير، ومحض تطلع إلى انطلاق من غير تفكير فى محطة الوصول . . .

لن يلبث حتى يأتى . . .

وأتت بهانة بالشاى وطعام الإفطار . فجعلت تأكل وهى لا تكف عن الكلام كأنما تريد أن تتشاغل وتشغل المرأتين عما فى صدرها من جيشان . . . وأذنها لا تنفك مرهفة لكل نأمة تأتى من الطريق . . .

ورفعت بهانة الخوان ، وغسلت رتيبة يديها ، ووضعت شيئاً من العطر خفيفاً ، وتشاغلت عند النافذة ببسْط الفراش ليصيب شيئاً من الشمس . . .

لمَ تأخر اليوم ؟

لَعله لم يتأخر ، ولكنها تستبطئ قدومه وقد أخلت له الطريق من الصخور والأشواك . . . !

وحملت القلة وتشاغلت بغسلها ، ثم عادت بها إلى النافذة ، ووقفت تتطلع إلى الطريق والحقول وقد بدأ قلبها يرقص رقصة من نوع آخر . . . فيها قلق وتوجس . .

أتراها كانت قبلة طيش ؟ أتراه رأى فيها «مهجة» أخرى ؟

واستنكرت هذا الخاطر . . . «زكى» فتى نبيل. إنه يحبها ، ولها فى

نفسه مكانة . وهل نسيت ارتباكه واضطرابه ؟

مهجة ؟ ومن مهجة هذه ؟

إن هى إلا بغى ! وهل عليه من حرج فى بغى تبتذل له نفسها وهو رجل يضج بالحياة والقوة ، وليست له زوجة ؟

وامتلأت نفسها امتعاضاً من هذه البغىّ ؛ حتى اربد وجهها . . . آه لو كان تزوجها ! . . إنها تقرأ ذلك فى عينيه . أليس يرتد فتى يافعاً وهو يجالسها كأن الزمن لم يتحرك به منذ فارقها !

قسمة ! لا شك أن عينه كانت عليها ، ولكنهم تعجلوا بزواجها قبل أن تسمح له ظروف طلب العلم بإبداء مثل تلك الرغبة . . .

ومن يدرى ؟ لعل سفرته إلى إنجلترا لم تكن خالصة كلها لوجه العلم ! ولعل لليأس والضيق بالمقام فى موطنه بعد ضياعها من يده بدأ فى هجرته بأساه إلى مقام بعيد .

وهل كانت تنتظره بلا زواج إلى أن يعود ؟

ولِمَ لا ؟ ما أكثر «البنات» اللواتى فى سنها وبقين إلى اليوم بلا زواج ! هذه هى السن المعقولة ، السن الواجبة للزواج ، سن النضج ، لا تلك السن الصغيرة التى لا تدرى فيها الواحدة رأسها من قدميها ، فإذا بها – وهى لا تدرى – أم شرذمة من الأطفال ، ثم جدة . . . وهى فى حقيقتها تتهيأ لتمييز طعم الحياة . . . !

وزفرت من قلب صديع وهى تستعرض رواسب عمر قضته كالبقرة التى تدور فى الساقية وهى معصوبة العينين لا تدرى ماذا تفعل ! وهى فى

الواقع تلقى من جوفها قيئاً . . . عبارة عن أطفال ، وإدارة بيت ، ومعاشرة رجل ، واستقبال ضيوف . . . وكل ذلك ليس له أثر فى نفسها إلا الدوامة والكابوس . . . !

كانت حرية بأن تشعر بحياتها حتى لوكانت انتظرته ، وقطبت حاجبيها قليلاً وهى تتذكر صباها وصباه ، وأنه لم يغازلها يوماً ، ولم يخطر ببالها أن بينهما حبًّا . . .

ولكنها – ويا للعجب ! – تدرك الآن فقط أنها كانت طول عمرها تنطوى له على حب ، بيد أنهم قطفوا الثمرة خضراء ، فلم تدرك مكنون نفسها ، ولعلها ما كانت لتدركه ألبتة لولا ذلك اللقاء العارض . . .

كانت تعيش كمن تسير فى نومها ، شىء يفصلها عن واقع إحساسها لا تدرى ما هو . . . إلى أن صحت . . . ؟

وشىء واحد تدريه : أن من يصحو لا يمكن أن يعود إلى الحلم الذى عاشه مهما تعلق بالكرى . . . !

لقد صحت . . . صحت . . . صحت . . . هذا أكيد . إنها واثقة بأنهما صحوا معاً ؛ فهو أيضاً صحا من كابوسه . . .

هذا أكيد . أكيد . ولا يمكن أن يغير من حقيقته شىء . . .

ولكن ماذا سيحدث . . . ؟

حتى هذا ليس مهما ، فالشىء الوحيد الذى ينفرد بالأهمية أنها الآن صاحية ، وهذا هو الشىء الوحيد الذى يملأ آفاق نفسها ، ولا أهمية بعد هذا لشىء . . . أى شىء . . . !

المخمور

(تراجيديا هامسة)

« لم آت لأدعو الخطاة
إلى التوبة . . بل الأبرار ! »
هنريك إبسن

إلى السائرين فى الظلمة .

وإلى من يلوح لهم – من أنفسهم – فجر جديد . .

* * *

وأيضاً إلى :

موهانداس غاندى : قديس . معلم . إنسان !

نظمى لوقا

من رقيق الأرض

كلمة فى التسمية

أما أنها تراجيديا ففى مرجو المؤلف أن يكون مفهوماً أنه لا يجهل المدلول الأصلى للفظ التراجيديا وقالبها التمثيلى .

بيد أنه أطلق هذا الاسم على إنتاجه هذا ، لا باعتبار الشكل ، بل باعتبار المضمون .

وأما أنها هامسة فهو يعنى هنا الهمس باعتبار الشكل ، لا باعتبار المضمون .

هذه المأساة

إنها مأساة الفراغ الهائل الذى يحول بين الإنسان والإنسان ، مأساة الجهل والإعصار وتوابعها من سوء الفهم وسوء الحكم . إنه الميزان المختل الذى ينصبه العرف الاجتماعى والقيمة الأدبية التى توزن بها أخلاق الناس وأقدارهم .

لماذا هذا الإنسان فاضل ومحترم ؟

ولماذا ذاك الإنسان ساقط ومبتذل ؟

ما القسطاس الذى به يثقل ميزان إنسان وتشيل كفة إنسان ؟

أى علم لنا بالفضل والسقوط ؟ أى حكم لنا بالسمو والهبوط ؟ أى حق لنا فى احتقار إنسان أيًّا كان ذلك الإنسان وفى ازدرائه !

نحن لا نعرف الناس إذ بيننا وبينهم هذا الفراغ الهائل الذى يخلفه

انحصارنا فى أنفسنا وإفراطنا فى حبها ؛ حتى إنه ليس فى قلوبنا مكان لأحد سوانا !

ولن نعرف الناس حتى نتقمص نفوسهم ، حتى نكون هم ونحن فى آن واحد وفى مستوى واحد ، ومتى أحببنا حق الحب فهمنا حق الفهم ، ومتى فهمنا قدرنا فهيهات عندئذ أن نقسو ، وهيهات أن نزدرى ، وهيهات أن نصم ونلعن مهما تكشفت لعيوننا مهاوى السقوط وحمأة الابتذال ! لا معرفة ولا فهم بغير حب ، ولا حب بغير صدق ، ومن أحب صادقاً أنارت له شجاعة إيمانه بحبه الطريق ، طريق الهبوط عن جبل الأنانية ، والخروج من عزلته فوق قمتها المثلوجة ، والنزول عن هالة تمجيد الذات ، تلك الهالة الجوفاء التى صيغت من أوهام الازدراء ، ومن صيغ التفكير والتقدير المحنطة التى ورثها فحبس قلبه وبصيرته فيها حتى استسلما للنعاس فى ظل طمأنينة البلهاء . . !

هى الدعوة إلى الحب والصدق وشجاعة الإيمان . .

فى هداها نعرف أنفسنا إذ نعرف الناس ، وفى ضعفهم وشقائهم نعرف ضعفنا وشقوتنا ، وما أحرانا يومئذ أن نحب الضعفاء والساقطين لا حبًّا فى الضعف والسقوط ولكن حبًّا فى البشر ! فى نفوسنا التى استيقظت وعبرت الهوة ، هوة الفراغ الأعمى الذى بينى وبينك ، ذلك الفراغ الذى أقناه كلانا كى يستطيع كل منا أن ينظر فى وجه صاحبه ، ثم يبصق على الأرض وقد شعر أنه إنسان عظيم . . . !

على رسلك أيها الأخ !

لا تبصق على الأرض فأنت أيضاً من رقيق الأرض أيها الصديق . .

افتح عينيك أيها الأخ واستيقظ ، واعبر الهوة التى تحيط بك من كل جانب . . وتحرر يا أخى بالحب .

فإن ذلك هو الطريق الحق والحياة . .

المخمور

حدث هذا ذات ليلة شاتية بعد منتصف الليل ، وقد أقبل يعدو . ومعطفه الفضفاض المفتوح تملؤه الريح كأنه شراع سفينة ، ثم لحق بآخر عربة فى آخر قطار من قطر المترو . .

وجلس ، وسعل حتى طفرت إلى عينه الدموع وبصق من النافذة ، ثم أغلق زجاجها القذر ، وشرع يستجمع أنفاسه المكروبة وهو يدير فى أرجاء العربة المترنحة عينيه الحمراوين الكئيلتين .

* * *

كاد يفوتنى الملعون وهو الأخير . لكن الذنب ليس ذنبى ؛ إنه ذنب «إسبيرو» الذى أراد أن يغالطنى فى الحساب . . . ماذا كنت أفعل لو تركتنى يا حبيب الروح ؟ يالك من غادر ! أوه ! لا تغضب ؛ هذا

مزاح يا جماد . . . أأنت أيضاً كبنى آدم لا تفهم المزاح ؟ الأمر لله . . . حقك على رأسى . . . وهذه قبلة على زجاج شباكك القذر !

الله الله ! لسنا وحدنا يا سيد مترو ! فهناك فى آخر العربة واحد ، بل اثنان يا مترو ، الهائم تضحك لأنى قبلت زجاج شباكك ! أمسرور أنت بهذه الشبهة التى ركبتنى بسببك فى آخر الليل ؟ أما سعادة البك الذى معها فرجل فاضل . . «ثقيل» يعنى «له وزنه» إنه لا يضحك ؛ الضحك عيب طبعاً . . مفلوم ، شىء لا يليق ! يارب سترك إنه ينظر فى رزانة ، واستهانة . . . إلى الرجل «المبسوط حبتين» الذى يقبل زجاج آخر مترو . . . !

مرحباً أيها الرفيقان — يا رفيقى آخر الليل . . . نحن وحدنا هنا ، ولكن شتان طبعاً أنتما وأنا : أنتما فى أول العربة — فالأول دائماً يكون حيث يكون أمثالكما — وأنا فى آخرها . . . وبيننا «فراغ» . . . فراغ تخترقه نظرات «إليك» الوقور محملة بالكبرياء والاحتقار . . . والشفقة أيضاً . . .

لماذا تنظر إلى هكذا ؟

أنا طبعاً لا أنتظر منك رداً ، لأننى لم أخرج سؤالى من بين شفتى ؛ فأنا أسألك هكذا بينى وبين نفسى ؛ لأن الكلام بيننا — أنا وأنت — عبث ؛ فأنت فى «الأول» وأنا هنا . . فى «الآخر» . وبيننا «فراغ» كبير لا يعبره أحد . اللهم إلا الكمسارى طبعاً والكمسارى ليس أحداً ؛ إنه مجرد مستودع تذاكر .

لماذا تزدرينى وترثى لى وكأنك تسألنى أى مخلوق عساى أن أكون ؟ أى مفاجأة تخبؤها لك الأقدار لو أنك عرفت جواب هذا السؤال ؟ فأنا يا صاحبى – ولا تعجب – رجل شريف . . . !

أى والله «رجل شريف» هكذا «مرة واحدة» كلا ! كلا ! ليس ادعاء ما أقول ، ولكنه الحقيقة بنصها ؛ فقد كنت يوماً على شاكلتك تماماً أعنى سيداً له وزنه ، له صفاته وأناقته ورزانته ؛ يجلس حيث تجلس أنت ؛ أعنى فى المقدمة ؛ وينظر إلى من فى المؤخرة بزراية وإشفاق . ثم . . . ثم وجدت نفسى فجأة أنقلب رجلاً آخر : أعنى الرجل الذى تراه الآن . . . «رجلاً شريفاً» . كيف حدث هذا ؟

قلت لك : إنه حدث فجأة ؛ فقد بدأت قصتى الفذة فى اللحظة التى أدركت فيها أن النجوم ليست فى مواضعها الصحيحة ، وأن الجهات الأصلية الأربع – أأربع هى حقًّا ؟ ولماذا أربع ؟ – منحرفة عن اتجاهاتها ، وبعبارة أخرى : إن الجهات الأصلية ليست أصلية على الإطلاق . . .

أتقول ، إنك لا تفهم ماذا أعنى ؟

طبعاً يا أخى ، أنت لا تفهم ؛ فبيننا هذا الفراغ الملعون ، ولكنى سأحاول أن أفهمك . . .

أتقول ! لماذا أتعب نفسى فى تفهيمك ؟

هكذا لغير غرض . ألم أقل لك منذ البداية : إننى رجل شريف ؟ والرجل الشريف كما قد تعلم هو الذى لا يتقيد فى تصرفاته بالأغراض

النفعية . . .

أرى السخرية تزداد فى عينيك وميضاً . . . على رسلك أيها الأخ . . . وفر حديثك إلى نهاية الحديث ، وتعال معى لنبدأ من البداية . . .

انتظر أولاً حتى أشعل سيجارة . كلا لن أعزم عليك ، فأنت رجل «طاهر» : يعنى لا يدخن ، ولا يشرب الخمر ، ولا يقرب فاحشة ، أو نقيصة . . . إلا باللعنات طبعاً ، هذا مفهوم !

* * *

تريد طبعاً أن تعرف أين ومتى وقعت على هذا الاكتشاف الخطير؟ أعنى أن النجوم ليست فى مواضعها الصحيحة ؟ فى أى مرصد ، وبأى منظار !

اسمع ! أتعرف أين ينتهى خط المترو؟ لا لا ! لا حيث ينتهى الآن . بل منذ سنين . أجل عند هذا المقصف الخلوى البديع ، حيث يذهب الطاهرون من أمثالك فى أبهى زينة مع الطاهرات المصونات جدًّا عقيلاتهم . . . وحيث تذهب أيضاً تلك النجوم التى ليست فى مواضعها فى أجواز الفضاء . . .

وإلى هذا المكان ذهبت أنا أيضاً منذ ثلاثة أعوام ، وكنت وقتئذ مثلك ، رجلاً طاهراً جدًّا ، وكانت معى المصون جدًّا زوجتى ، وجلسنا فى الحديقة ننظر إلى الأشياء وإلى الناس بعينين ساذجتين ، ثم تتقابل

نظراتنا ونبتسم فى شىء غير قليل ؛ ولا أخفى عليك – من البلاهة . . . البلاهة التى منشؤها هذا الفراغ المضروب بيننا وبين الآخرين . . .

أتدرى ماذا كنا نشبه – أنا والمصون جدًّا زوجتى – فى ذلك الحين؟

كنا أشبه بصبيين جلسا على حرف قناة وفى يد كل منهما عصا طويلة فى طرفها خيط رفيع ينتهى بدبوس معقوف . ودليا العصا فى الماء ، بيد أنهما حرصا أشد الحرص ألا تتدلى أقدامهما فى الماء كى لا يبتل حذاءاهما اللامعان . . . وكلما غمزت السنارة – واسمها فى اللغة الفصيحة الشص إن كنت لا تعلم ! – تبادلا النظرات والابتسامة البهيجة البلهاء . . . وأخرجا السمكة الصغيرة ووضعاها فى الكيس الذى معها . . . ثم حملا الكيس فى آخر الجلسة ليأكلا ما فيه مع طعام العشاء إن كان فيه ما يصلح للأكل ، أو ليلقياه للقطة بامتعاض إن كان شيئاً غير ذى بال . . .

وإياك أن تهتف بهما : ما هذا الذى تأكلان أو ترميان لقطة الجيران ؟ أيحب أحدكما أن يأكل لحم أخيه ميتاً ؟ . .

فإنهما سينظران إليك بدهشة واستنكار ، ويقلبان شفتيهما ويقولان : إن هذه إلاَّ سمكات تافهة ، وليست مثلنا من بنى الإنسان . . .

كذلك كنا – المصونة جدًّا زوجتى وأنا – نتصيد لمحات ممن نرى من الناس حولنا ، وكلما غمزت «سنارتنا» ابتسمنا فى سرور ، وعدنا بوطابنا الحافل آخر الجلسة إلى البيت ، ثم أفرغناه بيننا ورحنا نهش بلساننا ما تصيدناه من اللفتات واللمحات ، فما كان منها دسماً استطبناه ، وما كان منها غثًّا نفضناه ممتعضين ، ونحن نرمى من تصيدنا لفتاتهم

ولمحاتهم بالتفاهة والحواء . . .

أكنا حقًا نشعر أن هؤلاء بشر مثلنا ؟ كلا : وإنما هم سمك فيه ما يؤكل ، وفيه ما يعاف ، ولكنهم سمك على كل حال ، وليس إحساسنا بهم أنهم من «عالمنا المخصوص» .

سمك يعيش فى الماء ، ونتصيده بالسنارة أو الشباك ، أو يمر بنا فلا نلتفت إليه ، فهو على كل حال من مخلوقات البحر ، ونحن عنه بمعزل عن كل شيء إلا أن نصيده فنأكله أو نرميه .

لهذا أيها الصديق كنت فى أصيل ذلك اليوم – أنا والمصون جدًّا زوجتى – نتبادل النظرات والابتسام . . . فى شيء غير قليل – ولا أكتمك – من السذاجة البلهاء .

وفجأة حدث الشيء الخطير . . .

وقفت أمامنا سيارة لا بالصغيرة ولا بالكبيرة ، ولا بالجديدة ولا بالمستهلكة ، من تلك السيارات التى تحمل طابع حياة أوساط الناس : فيها من علامات التنكير والتجهيل أكثر مما فيها من علامات التعريف والتمييز ، شيء تقتحمه العين كأصحابها ، ولا تقف عنده لمذمة أو إعجاب .

ولكن «ما» هذا ؟ إنه صاحب السيارة قطعاً فهو مثلها . رجل نصف ، فى «رفرفه» الأيمن الأمامى أثر صدمة من روماتزم ، وفى حركة ساقيه ما يدل على تراخ فى «السست» ربما يستعصى على الإصلاح ، إنه شخص ليس ذا بال . . .

ولكن «ما» هذه التى معه ؟ أقصد «من» هذه ؟

إنها ليست صاحبة السيارة ، محال ! فهى لا تشبهها ولا تشبهه فى شىء إنها كالزهرة الندية ، كلها «طيبة» . ماكل هذه الطيبة فى عينيها الهادئتين كأنهما بحيرتان ؟ وفى حركات ذراعيها وهى تمشى ! ثم فى حركتها وهى تجلس متضائلة كأنها تعتذر لعدم استطاعتها احتلال مكان أصغر من هذا الذى تشغله فعلاً – وما أقله وما أكبره من مكان ، إنه مكان «غنى» . . . المكان الذى تحتله الزهرة الطيبة وسط أديم واسع ، واسع ، ولكنه فقير غير موجود ؛ لأنه «فراغ» أيها الأخ . . . !

وفى رقتها وفى طيبتها – انظر ! إننى لا أستطيع أن أقول فى «رقة» وفى «طيبة» . هكذا على الإطلاق وعلى التنكير . . . لأن طيبة الذات الحية إنما هى أيضاً ذات ، لا تنفصل عنها لتندمج فى معنى مشاع ، لا ينتمى لأحد . كلا يا أخى كلا ! فقد كانت طيبتها هى ورقتها هى – لمستها وهى تحرك وجهها ، وتوجه كلامها الذى لم أسمعه – ولكنى انفعلت به نحو «الآخر» . نحو السيارة ، أعنى رجل السيارة الذى يشبه سيارته وتشبهه سيارته ، فنقلت نظرى إليه – فإذا هو جالس هكذا . . مثلك أنت الآن أيها الأخ – ومثلى أيضاً فيما مضى – كان مملوءاً بنفسه معتصماً بها لا يريد الخروج من قلعتها ، ويطل من كواتها الحصينة فى حذر وفى صرامة ، فينظر لكل شىء شذراً . . . وفى بلاهة أيضاً – وقد تكون النظرة الشزرة ، كالنظرة الساذجة على السواء فى أنها بلهاء . . . بلهاء بسبب هذا الانحصار فى قلعة الذات ، وهذا الفراغ الذى هو الخندق المحيط

بالقلعة من جميع الجهات . . .

طلب شراباً كأسين من الويسكى بالصودا . . . ثم قال لها شيئاً ، فرأيتها تنهض ، وتحف به حانية ، ثم تمضى خارجة لتعود بعد حين وفى يدها قرطاس به أقراص من الطعمية ، وكعكتان محمصتان مما اشتهر به مخبز درويش القريب من ذلك المقصف . . .

وكان كيانها كله – وهى تخدمه وتقدم له «شهوة بطنه» ونزوة نفسه – يفيض بالحنان ، ويجيش بسعادة الإعطاء والبذل ، وكما يطيب الينبوع الطيب بالفيض الرقراق ، وكما يطيب ضرع البقرة الطيبة بالدر وهى تنظر بحنان إلى عجلها الرضيع . . .

أما العجل الأشيب المتجهم فكان يرمقها وهى تفعل بنظرة تفيض تنازلاً ، ويشيع فى كيانه السرور العميق الذى يبعثه الزهو بالامتلاك . . .

وتململت فى مجلسى ضيق النفس ؛ لأننى أدركت أنها المصونة جدًّا زوجته . . . ولأن حاسة التناسب الكامنة فى أعماق أزعجتها هذه المفارقة الوقحة : البقرة الطيبة تنظر بحنان إلى عجلها . . . ولكن عينيها عمياوان لا تبصران ، فالعجل قرد عجوز له طقم أسنان ، ويقيم فى قلعة ينظر منها شزراً ، ولكنه يمد رأسه الأصلع الكئيب من كوتها إلى حيث تقف البقرة الطيبة – مقيدة بالسلاسل – خارج خندق القلعة ، فيمتص ضرعها . . . ثم يقهقه – كما يستطيع قرد عجوز دون غيره أن يقهقه ضاحكاً من البقرة الطيبة العمياء التى تحاله على الدوام عجلها الوليد الذى لست أدرى أين طوحت به الأقدار . . . ؟

من يدرى لعله لم يولد قط . ولكن هذا القرد الخبيث استطاع أن يخدعها عن نفسها ويغرر بطيبة قلبها ، فأوهمها أنها حملت ، وولدت . . . وهى لم تزل عذراء . . .

عذراء ؟

يالها من كلمة بلهاء ! كلا ! بالتأكيد ! إن قلبها قلب أم ، وما عدا هذا ليس مهم ، وقداسة هذا الحنان وهذا البذل هى هى التى تضعها فى السماء . . . ولو كان مكانها الفعلى فى أدنى درك من الحضيض .

وأحنيت رأسى ، وقد تنبه فى أعماق لتلك اللحظة دين جديد ، وامتلأت نفسى بخشوع العبادة ، فأغمضت عينى هنيهة لأتعمق هذا الميلاد الجديد ، ثم فتحتهما ؛ لأتملى مرة أخرى ذلك المنظر الذى أقض ذوق برهة ، وقد سكنت نفسى للذى وراءه من إحساس بعيد يرضى عنه الجمال . . . بل إنه الجمال ؛ لأن الحقيقة فيه تتسامى فوق الواقع ، فوق ما هو خطأ ، وما هو صواب ، ليستقر فى عالم لا انقضاء له ، عالم حس الجميل وحس المقدس فيه شىء واحد . . .

وفى هدوء لا تعكره رغبة ، ولا يعكره حسد ، ولا يعكره شىء — رحت أنظر وأتعمق وكأنى أحلم . . . إلى أن نهض ، فبادرت تسابقه للنهوض ، وتحف به حانية طيبة إلى سيارته الكالحة التافهة . . . ثم اختفيا عن الأنظار . . .

وهمست لزوجتى أن نقوم ، وقمت أسير بجانبها إلى البيت ، وأنا أرى للنجوم من فوقنا طعماً آخر . . . طعماً هادئاً عميقاً ، لا علاقة له

بالزمن . . . لقد رأيتها . . . « طيبة » . . .

ونظرت إلى زوجتى ، ورأيتنى طيباً وأنا أنظر إليها ، فقد تفجر نبع الطيبة فى قلبى ، كأنما لمسته عصا مسحورة ، فراح يفيض على كل شىء ، وعلى كل إنسان . . .

وجلست فى شرفة دارنا بجوار زوجتى ، وأحسست للمسات أناملى على ذراعها البعيد عنى وقعاً هنيئا مطمئناً . . . وشعرت أن هذه الزوجة قريبة منى جدًّا ، أقرب مما كنت أحسبها يمكن أن تدنو . . .

وباركت السماء ، وباركت الأرض فى تلك الليلة لأن كل شىء كان طيباً جميلاً .

أتدرى ؟

كنت قد سلخت سنوات أتوجس – هكذا لغير سبب – من الموت ، ولا أغمض جفنى ليلة إلا على توجس ومضض .

وفى تلك الليلة لم يخطر ببالى الموت . . . لأنه مات !

مات ذلك الموت الذى كان يقلقنى ؛ فليس للموت وجود فى ذلك العالم الذى رفعت لى أبوابه فدخلت على غير انتظار . . . إنها السكينة ، وأنى ينشأ الزمن أوينقضى ولا حركة هناك ولا فلك دوار . . . ؟

* * *

وكان اليوم التالى يوم جمعة ، ونزلت القاهرة لبعض شأنى ، ثم عجلت بالعودة قبل الظهر بأكثر من ساعة ، فأدركت الملعون الذى نحن فيه الآن – أعنى المترو – وفرحت مرة أخرى حين رفعت عينى فإذا قبالتى

فوق المقعد المواجه لى . . . يا أولياء الله ! هاتان العينان الصافيتان كأنهما البحيرة الساكنة . . . والطيبة . . . ويح قلبى لهذه الطيبة المغرقة التى تفيض على الدنيا بكل ما فيها ومن فيها .

ووجف قلبى المسكين ، وخشع طرفى ، ولكن الإشراق شاع فى كيانى كله وأنا أرجع فيها طرفى الخاشع ، ولمحت نظرتى ، ولم يفتها ما فيها من خشوع ، فقد رفت نظرتها على وجهى كما ترف عين الأم على صغيرها اللاعب بين لداته الصاخبين ، وانقشعت نفسى ، فباركت السماء ، والأرض . . . وقطار المترو !

وتحرك هذا المترو المبارك بنا محطة وأنا لا ألقى لمسيره بالا – أين هو وأين أنا – ثم محطة ثانية وقبل أن يبلغ المحطة الثالثة تمهل ، ثم ربض فى مكانه لا يتحرك . . . فتنبهت لوجوده .

خيراً يا عم مترو؟

وأجاب عنه السائق ، وبطنه يهتز ، وإن ظل وجهه جامداً لا اكتراث فيه ، إن تيار الكهرباء انقطع .

وتبادل الركاب النظر ، وتبادلنا النظر قبلهم . فإذا فى عينيها مواساة واستسلام للواقع كله سماحة وصفاء . ثم نزل معظمنا . وكنت فى زمرة النازلين . وقد رأيتها تنزل أمامى ، ووجدت نفسى كالتائه لا أدرى ماذا يجدر بى أن أصنع فى هذا الموقف بالذات ؟ ووقف سائق سيارة أجرة وأشار إلى هل أركب ؟ ووجدت نفسى متورطاً أفتح باب السيارة وأركبها . . . وإذا بابها الآخر يفتح . وإذا . . . من بحق السماء ؟ هى !

هى بعينها ، ودخلت واستقرت وهى تبتسم لى بعينيها الطيبتين ، كأن هذا هو مكانها المفروض . . .

وتذكرت تلك النظرة ، تذكرتها جدًّا ، إنها نظرة الطيبة والبذل والحنان التى رأيتها فى عينيها وهى تحف بالفاضل جداً زوجها فى المقصف الخلوى بالأمس .

وقال السائق بصوته الأجش الذى فيه من الاقتحام أكثر مما فيه من الحذاقة التى يخالها فى نفسه :

– مصر الجديدة طبعاً . . .

وجف حلقى فلم أجب ، لأن عقلى كان فى شغل عنه بالداهية التى دهتنى على غير انتظار ، ولم أدر ماذا يجب أن أصنع بالضبط ؟ فالتفت وقلت لها ، وأنا أغض فى نظرى كالمعتذر عن وجودى أنا إلى جانبها :

أ . . أ . . أهلاً وسهلاً . .

ولم يفتح الله على بعدها بشىء . . .

أى حق لى أنا أن أكون هنا فى جوارها ؟ أجل أنا الذى ركبت ، ثم ركبت هى من تلقاء نفسها . ولكن ما قيمة هذا الواقع الحسى السخيف ؟ إن هناك واقعاً آخر أسمى جداً من هذا الواقع وأصح : واقع عالمها الطيب . واقع الموجودات بحقائقها لابزمانها ومكانها . وهذا الواقع هو الذى يجعل الفارق بينى وبينها . . . رباه ! كيف لى بقياس هذا الفارق ! هى فى هذا الواقع ندى وضياء ، وأنا . . . تراب مهين . . !

وازددت تضاؤلاً فى مكانى ، وغمر الخشوع كيانى ، وفاض عنى –

هذا على الأقل هو المفروض – إلى السائق . . . فأنا وهو هنا من طينة واحدة . . . غرباء فى بقعة مقدسة بين سائر البقاع . . . !

وبصوت رخيم طيب وبنظرة تساؤل طيبة سألتنى هذا السؤال البرىء :

–هل تريد أن نذهب عندك ؟

وحملقت مصعوقاً حملقة جانبية طبعاً . وفطنت إلى استهوالى ، فأسرعت تربت بأناملى هينة لينة مترفقة على ركبتى تسرى عنى ، وهى تشيح برأسها البديع كأنما تطرد بهذه الحركة هواجسى . وابتسمت ابتسامة من قدرت من قبل الاحتمالات كافة ، فكفتنى مؤونة الهم :

– عندى إذن . . . قل له يذهب إلى الشارع . . . ، رقم . . .

وانكمشت فى مقعدى ، واعترتنى قشعريرة من حس أناملها ، فأبعدت ركبتى ورحت أحملق كالمحموم فى وجهها ، وقد حيرتنى هذه الطيبة . وشككتنى فيما سمعت بأذنى ، فابتسمت لها ابتسامة عريضة مغتصبة ، أعتذر بها فى خزى شديد عن هذا الذى دسته عليها أذنى المتجنية العابثة الحرقاء . . .

مستحيل يا هذا ! مستحيل ! إنها هنا . أجل ! هذا مفهوم . . . ثم ماذا؟ إنها الشركة فى الطريق طبعاً . ألم نكن من قبل فى المترو؟ ثم تعطل المنكود؟ وها نحن أولاء فى السيارة إلى وجهتنا المشتركة ! مصر الجديدة ، كما يحدث كل يوم حين يتشارك الناس عرضاً فى سيارة الأجرة إلى هناك .

ولكن عنوانها يا أخى ، بم تفسر عنوانها؟ . . . إنها فعلاً طلبت منى أن

أدلى به للسائق . . . وهذا أيضاً مفهوم يا بهيم ! فلابد طبعاً من إعطاء عنوانها للسائق كي يقف بها عنده ، فتنزل هناك ، ثم أنطلق أنا لوجهتي . . . أو كنت تحسب السائق يعرف الغيب؟ ألا إنك لعتل !

لاشك أن الأمر كذلك فعلاً . . . أما الباقي فخدعتني فيه أذني قبحها الله ! ما أظنها إلا أبيحت نفسها اليوم للشيطان فاتخذها مطية ذلولاً . . . ويحي ! كيف أعتذر عنها ؟

وببلاهة الحزى والحيرة ابتسمت مرة أخرى وغمغمت :

– أهلاً وسهلاً . . .

ولم يفتح الله على بشيء آخر ، لأني كنت مشغولاً بعد ذلك ببلع ريقي ، وبالدنيا التي تدور من حولي ، وبرأسي الذي يطن .

ماذا حدث للدنيا ؟ ألم تتصالح بالأمس فأباركها ، وأبارك السماء ؟

وتذكرت عندئذ فتى الأساطير الذي استهواه بهاء الشمس ، فلما صنع الأحمق لنفسه جناحين ليطير إليها أذاب وهج الشمس غراء الجناحين ، وسقط صريعاً مهشماً على أديم الأرض البليدة التي غادرها .

ويحي ! كان ينبغي – على ما قرأت من أخبار الأولين والآخرين – أن أكون أحجى من هذا الأحمق المأفون ، فلا أدنو من قرص الشمس . . . وأكتفي ببهائها من بعيد ، فلا ألومن الآن إلا نفسي . . .

ونضح جبيني عرقاً ، عندما هدأت السيارة من سرعتها ، ثم همت بالوقوف . . . فمالت على كتفي بحركة طبيعية جدًّا مترفقة جدًّا . وهمست في أذني :

– أعطه أجره ! وتأبط ذراعى وأنت داخل من الباب ، ولا تلق إلى البواب بالا . . . وإن سألك فقل له إننا زوار المهندس فلان فى المسكن رقم . . ولكنه لن يسألك إلا إذا كان يريد شلناً . . .

وغمزت بعينيها غمزة خفيفة جدًّا بريئة جدًّا كما يفخر الطفل ابن عامين مسروراً بأنه تعلم غمزة العين !

ولم يكن البواب أمام الباب بل كان فى رحبة خلف المنزل ، يصلها بمدخله باب منخفض ضيق أطل منه برأسه حين سمع وقع الأقدام ، ولكن لم يلبث رأسه أن انسحب بسرعة إلى الداخل . . . فصعدت معها وأنا أدقق النظر فى درجات السلم وجدرانه تدقيقاً ملحفاً كأنى أستجدى الإحساس باليقظة والواقع من هذه الجمادات المحيطة بى .

وفتحت باب مسكنها بمفتاح كان فى حقيبتها ، ودخلت وراءها مسرعاً ، كأننى أتلهف أن يحقق داخل ذلك المسكن رجائى الذى خيبته السيارة والسلم والجدران فى إمدادى بسند دامغ لحقيقة محسوساتى . . . يخرجنى من دوامة حيرتى التى ألقتنى فيها هذه الابنة الطيبة ؛ فعالم طيبتها أثبت وأوكد فى وجدانى من جميع تلك المحسوسات .

ورأيت أريكة رحبة نظيفة عليها قماش من الكريتون أحمد الله أنه لم يكن ناصع البياض ، إذن لكان نكرة غفلا يزيد متاهتى حيرة وإلغازاً . . . بل كان منقوشاً عليه أوفق رسم يمكن أن يتسق مع طيبة عينيها وبراءتها ، رسم قطيطات صغيرة فارسية تلعب فى أزهار حديقة حافلة بالزهر والريحان . . . تتمرغ بينها وتتواثب على أعوادها الرهيفة فتنوء

بثقلها وفى عينيها وهى تثب ، وهى تقع ، وهى تتمرغ ، وهى تتحفز — تلك البراءة التى لا تحمل أثراً من حقد أو ألم أو غضب أو تأثم !

فرحت جداً بهذه القطيطات الصغيرة اللاهية البريئة حتى لقد قبلتها وعانقتها بوجدانى امتناناً لوجودها هنا وشكراناً فقد كانت هى «الشىء» الدامغ القوى الذى التمسته ليبرهن لى على أن أحد العالمين اللذين يتنازعانى هو الصحيح وأن الآخر زائف ، موهوم .

هذه القطيطات من عالمها ، من عالم عينيها وطيبتها . . . إنها الشىء الوحيد الذى من عالمها حقًّا . من دون آلاف الأشياء الأخرى التى زيفها على إحساسى وسمعى ، ونسبها إلى الطبيعة البريئة الحسناء . . .

ولكن أين هى ؟ . . .

ورأيتها تدخل ، كواحدة من قطيطاتها المتواثبة . . . حتى لتوقعت أن تثب على شىء مما حولنا ، لكنها لم تفعل إلا شعرها المرسل ، فقد تواثب كقطيع من الغزلان : أما هى فجلست على الأريكة الوثيرة ونظرت إلى فى بساطة مطمئنة . . . جعلتنى أخلد إلى مكانى ، ولا يخطر لى أن مقولة المكان والأين يمكن أن تنطبع على موضع آخر . . . ذلك أن «العالم» كله انسحب بهذه النظرة الصافية المطمئنة من وجدانى بكل ما فى ذلك العالم من مكان ومن إضافة ومن امتلاك ومن قلق . . .

«هنالك لا الشمس دوارة . . . ولا الأرض ناقصة زائدة ! » . ها هنا الأبد !

ونظرت إليها نظرة امتنان وتعبق . . . كتعلق التائه بمنقذه وقد أخرجه

من تيه مغرق لم يكن يرجو منه مخرجاً إلى يوم يبعثون . . .

وانفرجت شفتاها عن شيء ، ولكنى لم أسمعه ، لأن سمعى كان مخدراً غائباً ، إذا استأثر بالحضور وجدانى وعيانى . . . لم أكترث أن أعلم ماذا عساها قالت ، أى قيمة لهذا ؟ أى معنى للألفاظ حيث عالم المعانى خالصة متقومة بأعيانها بغير صيغة ، وبغير حواجز فاصلة ؟ . . .

لماذا تصر أن تتكلم أو تتحرك أو حتى أن تنمسنى ؟ إن الوجود ها هنا . . . ومجرد الحضور كاف كل الكفاية .

ولكن شيئاً اعترى نظرتها ، ربما لأنى لم أسمعها ، أو لم يبد على وجهى أنى سمعتها ، ثم مدت كفها برفق فوضعته فوق كتفى ، ورفعت صوتها قليلاً كأنما لتنبهنى من سبات :

– ألا نشرب شيئاً أولاً ، عندى هنا كل شيء : أم تفضل أن تتخفف من ثيابك ؟ أعددت لك هناك منامة نظيفة فى تلك الحجرة . . .

وقرعت الأجراس فى رأسى ، أجراس الحريق ، ونذر الخطر التى تضمها بابل بأسرها ! وطنّ النحل وتدافقت أسرابه ، ودوت الطبول . . . آلاف منها فوق آلاف . . . ودار الدولاب ، ودارت المقاعد ، وراحت قطع الأثاث تبرجس من حولى فى رقصة همجية على ذلك «الجاز» المحموم !

وطأطأت رأسى كسير القلب مقهوراً ، ورأيت أصابعى تعبث بالغطاء المزركش بالقطيطات عبثاً عنيفاً ، وكان ينبغى أن يمزقه . . . لولا أن

تناولت يدى فى يديها ، ونظرت فى عينى – ويح عقلى ! – بطيبتها البريئة الحانية :

– ماذا بك ؟ أتشكو شيئاً ؟

ولم أشعر إلا وقد طفرت من موضعها بجوارى ثم عادت فى أقل من رجع الصدى ، وفى يدها كوب أدنته من شفتى ، فجرعته مرة واحدة فى استسلام .

وابتعد رنين الأجراس وقرع الطبول رويداً ، وهمدت قطع الأثاث فى مواضعها ، ولكنها لم تفقد شيئاً من نشاطها وقوتها وهى ساكنة ، إنها تبدو على أهبة كاملة للعودة إلى رقصتها الوحشية ، عند أى إشارة من غير أن تخشى تعباً أو نصباً ، وشعرت تماماً بوطأة تهديدها الصامت ، كما يشعر المكروب بفوهات بنادق خفية لا يراها من حوله الناس ، ولكنه يعرف جيداً ما تعنيه هذه الفوهات .

– اسمع . قم الآن وانصرف . . . لماذا لم تقل لى إنك تشكو من قلبك ؟ . . . يجب ألا تتعرض لخطر نوبة وأنت هنا . . .

– قلبى ؟ . . . كلا ! ليس به شىء ، ولم أعهد عليه نوبة قبل الآن . . .

– إذن ما هذا ؟ . . .

وبدأت الحيرة فى وجهها تحتل موضع الخوف :

– ليس من المعقول فى سنك أن هذه أول مرة . . .

ثم بسطت يدى اليسرى وحملقت فى دبلة الزواج ، فجذبت يدى

وأبعدتها من غير تفكير ، فرفعت عينيها إلى عينى ، وليس فيهما إلا سكون البحيرة العميقة فى براءتها التى لا تدرى لها أغوار . . .

وشعرت فى هذه اللحظة بجفاف حلقى وبالعرق الذى يتفصد به جبينى :

– جرعة أخرى من فضلك . . .

واستجمعت بعدها فى شىء من السهولة أطراف جأشى الشتيت . . . وجعلت أبحث عن «طرف الخيط» الذى أبدأ منه الحديث المرهوب . . . الحديث الذى يتحدى براءة عينيها وطيبتها ، ولكنى لم أعثر على طرف للخيط ، وخطر لى أن أعالج الموقف على طريقة مصارعى الثيران ، فأقبض على قرون الثور ، ولا ألتفت إلى زيله أو أذنيه أو حوافره .

طيبتها ! هذا هو قرن الثور !

واندفعت :

– المسألة أننى . . .

وتوقعت أن تساعدنى بكلمة أو بنظرة ، ولكنها استمرت تحدق ببراءة الطيبة الخالصة ، فبلعت ريقى وقلت بسرعة :

– طيبتك ونقاؤك وطهر عينيك وكل ما فيك هذا هو السبب !

ونظرت إليها متوسلاً وقلت :

– هل فهمت ؟ . . .

وهزت رأسها بثبات وطيبة وصراحة . . . أن لا !

– أعنى أننى رأيتك بالأمس فى الكازينو مع ذلك الفأر العجوز الأصلع . . . ولم أكن أتوقع إطلاقاً . . .

ولم أدر كيف أعبر عما فى ذهنى ، فنظرت حولى وأشرت بيدى ، كأن الأثاث والمكان فيهما البيان الكافى عما عجز عنه لسانى الكليل . . .

ولأول مرة رأيتها تقطب حاجبيها ، ولمحت بوادر نوء يتجمع على أفق البحيرة الساكنة الأغوار ، فأسرعت أضع يدى على ذراعها متوسلاً :

– أرجوك ! إنما عنيت أنك لست من هذا المعدن وأن النجوم مكانها فوق رءوسنا ، هناك فى السماء نتطلع إليها ولا ندركها ، تلهمنا ولا نملكها ، وليس مكانها فى الطين والوحل تحت الأقدام مع الخنافس والصراصير والهوام . . . وأنى روعت لهذا الانقلاب فى مواضع الأفلاك . . . أشرفت على الجنون فعلاً وصدقاً ، وإنى مستعد أن أموت غداً بل اليوم لو ضمنت أننى أعدت بهذا الثمن التافه الكوكب التائه عن مكانه إلى فلكه المرسوم فى أجواز السماء . . . فأى ثمن يهون جدًّا بجانب هذا الغرض . . . ؟

– النبيل . . . هه ؟

وبسخرية صامتة لا توصف استطردت فى هدوء مقصود :

– تريد لتنقذنى . . . هه !

وشهرت فى وجهى عينين لا تطل منهما الطيبة المطلقة غير المتعينة . بل يطل غضب لو انفجر لكان بركاناً وإعصاراً لا يبقى ولا يذر . . .

– كلا . أنقذك أنت ؟ ولماذا ؟ إن النجوم ربما لا يضيرها أن تكون

فى الأوحال ؛ فهى نجوم على كل حال ، وإنما أريد لأنقذنا نحن البشر . أنقذ نفسى ومن على شاكلتى من الناس . . . هناك شىء اسمه المنطق ، منطق الأشياء ، به تتعين مواضعها ، وبه يتعين أن تكون السماء موضع النجوم الطبيعى ، أما هكذا . . .

وأشرت مرة أخرى بيدى فيما حولى كأن فى هذا المكان الذى حولنا بيان يغنى عن كل بيان واستطردت :

— . . . كلا . هذا مستحيل ؟

- مستحيل ؟ ما هذا المستحيل ؟

— مستحيل طبعاً أن تكون النجوم فى مكان ليس هو السماء ! أترين العقل يبقى لأحد من الناس لو رأى السلحفاة تطير بصدفتها ، والجبل يغنى كالبلابل ، والكروان يعيش فى الوحل ، والخنازير تبنى عشاشاً على أعالى الأشجار ، ولا تكاد تمكث على فنن إلا طارت منه إلى فنن ، وهى تشدو فى الهزيع الثانى من الليل ؟ عالم مجنون هذا العالم الذى تريدين أن تفرضيه على الناس ، خليق أن يجنهم كما أوشكت أنا أن أجن . . ! وهذا هو ما أفرق رعباً منه ، وأريد أن أجنبهم إياه وأنقذهم من مغبته ، ولو دفعت ثمناً لذلك حياتى كلها ، فما أتفه حياتى وحياة أى إنسان بجانب المنطق يا سيدتى ! اقتلينى ولكن دعى المنطق يحيا . . . من أجل العقل يا سيدتى دعى الوحل للخنافس والصراصير . . . وعودى إلى مكانك مع النجوم !

ورأيت عينيها تجوبان طولى وعرضى ، نعم رأيت ذلك فى عينيها ، ولا أدرى كيف أدركت أن لى طولاً وعرضاً يستأهلان القياس بعينيها ؟ فإنى

وددت ساعتئذ لو أمكننى أن أبلغ من الضآلة فوق ما أحسست أنى بلغت . . .

وخيل إلى برهة أن وقدة غضبها خمدت ، وأنها ظنت بى الجنون . . أو ربما ظنت بى الشعر ؛ فقد رأيت أوصالها تجمد ، وملامح وجهها تتحجر ، كما يتحجر الكائن الحى إذ تفارقه حرارته عندما يتحول إحساسه إلى العداء أو الازدراء ، وسمعتها تقول بصوت قاس فى خفوته وهدوئه :

– أهلاً وسهلاً !

فأحسست أن قطة متنمرة أكتشفت داخل الجورب القديم الذى كانت تداعبه بكفها فأراً صغيراً . اكتشفته فجيته ، وهى تدرى تماماً ماذا هى صانعة به بعد حين . . . فانتابتنى رعدة شملت بدنى كله ، وتراجعت قليلاً وأنا أرى عينيها تتوهجان كجمرتين !

– أنت إذن واحد منهم . . .

– منهم ؟

– منهم ! من الصالحين جداً المحترمين جداً النقيين جداً الذين لا يقارفون معصية والذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ! مشيهم على أرض طاهرة فى ثياب طاهرة ، لا تريد عينهم أن ترى إلا جميلاً ، ولا تريد أنوفهم أن تشم إلا جميلاً ، ولا تريد صدورهم أن تتنفس إلا جميلاً ، أما الخنافس والصراصير ، والديدان والخنازير – فمن عالم الوحول ، الوحول التى ليس لها فى عالمهم مكان معلوم ، فهى أشياء

خارج الدنيا حيث البكاء والعويل وصرير الأسنان ! . . . كم أكرهكم أيها الأطهار الأنقياء ! كم أكرهكم ! كم أكرهكم !

ورأيت مخالب القطة تبرز كالقضاء ، لتنقض على الفأر الصغير المنهار . . .

« أكرهكم وأتمنى لو خلا العالم منكم ، ومن شمسكم النظيفة الساطعة ! أتمنى لو شمل العالم كله بنجومكم وأفلاككم طوفان من الوحل والظلمات ، فترث الخنافس والدود والصراصير عالمكم هذا الملعون !

« أنتم وباء الأرض لا ملحها ! كم أكرهكم وألعنكم !

« أحسبك وقد خيل إليك غرور نقائك تظنني أكره من يقتضونني في كل خطوة ما تأنف أنت وأمثالك منه ، ويرغمونني على التمرغ في الوحل بلا انقطاع !

« ربما ! ولكنهم أيها اللبيب يتمرغون معي ولا يحرمونني شرعية الشعور بأن معدني ومعدنهم واحد ، وأننا سواسية في حياة الوحل . . . فنحن جميعاً هاهنا خنافس وديدان وصراصير ، لا نور بيننا ولا عطور . . .

« وتهدأ سورة الداء ، ويسكن الصدر إلى مكمن العلة . . . فهاهنا عالمنا الذي لا عالم سواه ! ها هو ذا معدننا الذي لا معدن سواه . . .

« ثم يتسلل شعاع شيطاني من أضواء عالمكم المشمس ، وينفذ نفس طلق من عالمكم النقي المضمخة أنفاسه بعبير المروج الفيحاء . . .

« وتتحرك العلة أيها الغريب ، ويتنزى الجرح بالنزف والصديد ، وتثور

بالسعال الدامى الرئة المعطوبة .

« وتشعر الصراصير أيها الغريب أنها ليست إلا صراصير ، وأن حياتها سم وكرب وذل وهوان . . . تشعر بتفاهتها وقسوة مصيرها المحتوم . . .

« أى أمل الصرصار أن يغدو عندليباً أيها الغريب ؟

« كلا ! فكل حظه من العندليب وشدوه أن يضيق بوجوده وقد أدرك ما تفاهة هذا الوجود !

« ليس القضاء هوالذى يظلمنا أيها الغريب ! ليس الفاسقون هم الوحوش التى تنهش كياننا المنكود ، وإنما الذى ينهش كياننا ويدمره ، ويقطر فى وجودنا المرارة والتفاهة والنقمة هو أنتم أيها الأطهار الأنقياء . . . !

« أنتم زبانيتنا أيها الغريب ! نظافتكم ، نقاؤكم طهركم هى المهل الذى يسمم حياتنا ويكوى قلوبنا بسعيره المجنون !

« نظافة كل نظيف منكم سوط عذاب يهوى جلودنا ، ويعيرنا بوجودنا الرجيم .

« لماذا وجدتم ؟ لماذا ابتلينا بكم ؟

« كلا ! لا نريد رحمتكم ! لا حاجة لنا بها ! إنها تؤدبنا ! مجرد وجودكم أذى لنا ! أما الناهشون ! أما الباصقون ! أولاء نارهم برد علينا وسلام ! لأنهم منا ، لا يأنفون منا ، ولا يزرى وجودهم بوجودنا ، لهذا نشعر لوجودهم بالأنس والعزاء !

« ولهذا أيها الغريب أتلقف العشير منهم بالايناس وفرحة ذى القربى !

إنه شقيق ! إنه مواطن فى دنياى ! إنه مدهوم آخر تحت عجلات قضاء ألقاه فى الطين ! فيه يتنفس ، وفيه يتقلب ، فليكن له فيه من صدرى أنس من وحشة ، ومهاد من وعورة ، وري من ظمأ وظل ظليل . . . !

« هذا أيها الغريب ما دعوته طيبة ونقاء ، وكوكباً هوى من العلياء إلى الحضيض ! إنه ليس إلا أخوة وأمومة ، أو ما شئت من ألفاظ الأنقياء الأطهار ، ولكنه لا ينبجس إلا لبنى دنياى . . . الأدنياء !

« وأما أنت أيها الغريب فإليك عنى ، وعن طينى وأوحالى . . . بنقائك الظالم وطهرك الغاشم ونجومك المختالة المتشبثة بأجواز السماء ! » .

وحملقت فيها أيها الصديق ، حملقت فى البحيرة التى ثارت أغوارها بعد سكون ، وانفجرت فى قاعها البراكين . . .

ولأول مرة رأيت نفسى على حقيقتها الجديدة ، رأيت نقائى واحترامى جريمة ووصمة ينبغى أن أكفر عنها إلى أن أموت !

أى حق كان لى فى تعيير المسحوقين تحت أقدام القضاء بأرزائهم ؟ .

أى حق كان لى فى تعذيبهم بطهرى ونقائى ، كما تعذب الطاوين الساغبين بصور المآدب التى تعلم أنهم لن يملئوا منها بطونهم ما عاشوا ؟

أى مواساة للمضرورين بالعمى يستطيعها البصير سوى أن يغلق عينيه إلى الأبد ، ويغدو رفيقاً لهم يتلمس معهم الطريق ، فى وجوده أنس لهم ، بلا تذكرة ولا استيحاش . . .

. . . لم أخجل من شىء كما خجلت من نقائى واحترامى وأنا أتعثر فى أذيالها هابطاً السلم الذى كأنه لا يريد أن ينتهى بى إلى عرض

الطريق . . .

. . . لم أستطع أيها الصديق إلا هذا الضرب من التفكير عن تخايلي القديم بنقائي واحترامي ، وهو التفكير بالخمر وإهدار الوقار . . .

شيء في طبيعتي لم يمكني من أي تفكير آخر على كثرة ما حاولت . . . ولعل هذا الشعور الفطري لدى النساء هو الذي جعل المحترمة جداً زوجتي تتعلق بي ، وتثق أنني لا أخونها على سوء مظهري وسيرتي في الناس . . .

إنها تستقبلني كل ليلة هكذا في صبر صامت ، وأرى في عينيها الفاضلتين كيف تتمجد وتتغذى كبرياء صلاحها بالثبات على محنة هذا الزوج .

ماذا تقول ؟

أشرب الخمر لأنسى زلتي إذ تمنيت ذات مرة امرأة ليست حليلتي ، ومن كل نفسي !

اسمع ياصديقي ! أنا لا أجهل ترهات علمكم النفسي الحديث ! فأنا كما قلت لك رجل شريف ، ولهذا لن أنكر أنني كنت يوماً حلس ثقافة واحترام ونقاء ، ولكن تاب الله على من هذه البلية ! . . . إني رجل تائب أيها الرجل ! رجل يكفر كل ليلة عن إثم تخايله القديم بنقائه الأجوف وغفلة احترامه الخاوي . . .

إني أعتذر يا رجل عن كل لحظة قضيتها قذى في عين كل مهيض الروح يلقيه ضعفه في الأوحال ! كلما تذكرت غروري الأبله بسلامتي

وعافيتى بين المنكوبين والمصابين انتفضت خزياً وبكت روحى وأنت فى طوايا كيانى ندما . . . !

أتتهكم بى أيها المحترم ؟

أتقول : إن هذا يذكرك بقصة القديس المجذوب الذى انطلق ليعيش فى جزيرة المجذوبين باختياره ليرفه بجذامه العمد عن آلامهم غاية الترفيه المستطاع ، وهو الترفيه بالمشاركة المقصودة فى العلة ، والآفة والنبذ والحرمان ؟

على رسلك أيها الصديق !

ليس فى الدنيا قديسون ! صدقنى أنا ! هناك فقط محترمون مثلك يا محترم ، ثم هناك من هم مثلى أنا . . . بشر كسائر البشر ، ولكنهم شرفاء ! جهدهم منصرف إلى تحصيل حقيقة البر وجوهره ، متخلين فى سبيل ذلك عن سمعة البر ومظهره . . . مظهره المحترم الأنيق ، أيها السيد المحترم !

بل عفوك ! فقد اختلط على الأمر ! وأرجو أن تعذرنى ، فما هى إلا محاولة سكير عربيد لا طاقة له بالبيان الدقيق المتدفق عما يريد . . .

كلا أيها الصديق ! ليس الأمر كله عربدة للنسيان ، ولا هروباً إلى أوهام السكر من واقع مرهوب . . . ! كلا أيها المحترم . . . إنما هى البراءة ! نعم البراءة ! البراءة من غفلة اسمها الاحترام ، ومن بلاهة اسمها الوقار ، ومن جمود الأشكال والأوضاع . . .

براءة من غفلة ! أفهمت يا محترم ؟

لم تفهم بعد !

حاول مرة أخرى يا محترم ! إنها ليست عربدة . بل ثورة ! ثورة فى منطق الأخلاق ومفهوم القيم يا محترم !

أما سمعت من قبل بثورة ريمان ولوبتشوفسكى التى هدمت هندسة الرجل الطيب إقليدس . . . تلك الهندسة المستقرة الجامدة . . . كى تسمح للخطين المتوازيين المسكينين اللذين كانا ممنوعين من التلاقى منذ عشرين قرناً ونيف أن يتلاقيا ويتعانقا . . . هناك فى اللانهاية ؟ وهذا شىء بديع . . . أليس كذلك ؟

ماذا ؟ لم تسمع بهذه الثورة ؟ ولا تفهم ماذا تعنى ؟

طبعاً طبعاً ! ما أغبانى !

على رسلك يا محترم ! أحسبك سمعت على الأقل بالبعد الرابع الذى أشاعه أينشتاين على كل لسان ؟

سمعت به ! هذا مفهوم ! فأينشتاين له على الأقل نصيب واحد من «الاحترام» وهو أنه «شىء» مذكور فى الصحف . . . وكل محترم يقرأ الصحف . . . وحيث إنك محترم . . . والباقى طبعاً مفهوم !

هذا البعد الرابع يا محترم هو أنا !

أنا وحياتك أنت هو تمثاله الحى الصارخ فى آذان الأبد ، إن الحقائق كلها حتى الخلق منها ليس لها مكان ثابت ، أو شكل ثابت ، أو موضوع ثابت . ومؤدى هذا أيها الصديق أن النجوم يجوز جداً أن توجد فى الوحول ! وأن الشريف يجوز جداً أن يكون مخموراً . ! وأن البر والإثم

لا يستمدان حقيقتها من المظاهر والأوضاع . . . هيهات . . ! فالمسألة أعقد من هذا بكثير ! الحقائق الإنسانية يا محترم هيهات أن تنطوى فى قاعدة واحدة شكلية جوفاء . . . متعفنة من كثرة ما نجشأها الموت ! هيهات أن يكون هذا ، لأنه ليست هناك نقطة واحدة ثابتة فى هذا الكون المراوغ العجيب . . .

أتدرى لماذا هو مراوغ وعجيب هذا الكون يا محترم ؟

لأنه يضج بالحياة ! . . . والحياة لا تعرف الانحصار والثبات . . . أيها الثابتون الفضلاء !

وهذا ما أعنيه أيها الصديق حين أقول لك : إن حقيقتى دائماً هنا ، حيث أنا . . . ولا يمكن أن تتكيف بوجودك أنت هناك . . . ما دام بيننا هذا الفراغ الملعون !

ماذا تقول ؟ ألم تفهم هذا أيضاً ؟

كنت أعلم هذا أيها المحترم منذ البداية ! فلم أعول كثيراً على هذا الأمل الضعيف !

لا عليك يا محترم ! وفى سبيل الله زمرى أو سكرى !

لا ! بل اسمع ! لا أرانى يهون على أن أتركك هكذا من غير أن تفهم أو من غير محاولة أخرى هى الأخيرة . . . سأحشد لها قصارای فى التوضيح والإقناع ، فى كلمة واحدة بلغة عندى كل الأمل أن تفهمها بغير كبير عناء !

لك أن تفهم الأمر أيها الصديق على هذا النحو إن شئت :

إنى أفرط فى الشراب حتى يسعنى أن أبول – نعم أبول ! – بما فيه الكفاية ، على قيمكم الزيفاء ، واحترامكم الهزيل . . . أيها المحترم !

أرى وجهك احتقن !

أخيراً وصلنا يا جميل ! . . . وصلت أنا على الأقل . . . !

ها هنا أهبط أنا وأتركك حيث أنت . . . فطريقانا مختلفان منذ البداية جدًّا كما تعلم – وإن ضمنا مركب واحد – إلى حين . . .

آكلة الغيران*

(إلياذة سوقية)

(*) فازت هذه القصة بالجائزة الأولى فى مباراة عقدتها الإذاعة المصرية سنة ١٩٤٧ .

إلى السائرين فى الظلمة
وإلى من يلوح لهم – من أنفسهم – فجر جديد

* * *

وأيضاً إلى الفتاة الباسلة الفلاحة :

جان دارك

البطلة الشهيدة التى أكلتها النيران .
أهدى صورة أختها المعاصرة التى تقتات بالنيران لتعيش شهيدة فى أرض الأرقاء .

مصر الجديدة
أكتوبر ١٩٤٥

كنا جلوساً فى مقهى « الشمس » نتحدث . كعادتنا فى شئون السياسة وأسعار الصوف عندما ملأ علينا جو المكان نغم مرح رتيب من تلك الأنغام التى تبعثها صناديق المشعوذين على الطريقة الإفرنجية . ثم ما لبثت أن وقفت قبالتنا تماماً فتاة مصرية الملامح ، مصرية السمرة ، تلك السمرة القريبة إلى القلب تدخله دون استئذان ، كان وجهها طبيعيًّا لم يلطخ بالأصباغ والألوان ، وكان تعبيروجهها ساذجاً تكاد تشبه به وجوه الأطفال ، وكانت عيناها وما أروعها ! تحدقان بإنسانيهما الكبيرين البعيدى الغور فى وجوه الجالسين . أما لباسها فكان من تلك السراويل التى كان يلبسها الرجال ثم بيعت لتجار الأشياء القديمة .

وبقيت واقفة برهة يسيرة ، تحرك رأسها إلى الخلف كى تنطرح

خصلات شعرها إلى الوراء وأحسب هذا كله لم يكن إلا استلفاتاً للأنظار كي تتركز عليها ثم بدأت (تتشقلب) كما يفعل أهل هذه الصنعة . وانتقلت من هذا إلى إيقاد شعلتين مركبتين على عصوين جعلت تأكل ما عليهما من النار ، ثم (تبخه) من فمها فيملأ الهواء لهباً ودخاناً .

وطافت بنا كما طافت ببقية رواد المقهى ، وفى يدها الدف التقليدى تجمع فيه القروش التى يجود بها بعضهم عليها . ووضع كل منا فيه شيئاً ، حتى جاء دور صديقنا الحاج « سرور » فإذا بها تنظر فى وجهه ثم تقول له بلهجة تنبى عن ألفه : « إزيك » .

فاجت جماعتنا بالمرح . وركبنا صديقنا هذا بالدعابة اللاذعة ؛ فقد كان معروفاً بيننا بمجونه الذى يذهب أحياناً إلى حد غليظ مسرف فى الغلظة ، فلم نكن لنعجب من اتصال المعرفة بينه وبين أى امرأة على الإطلاق . . .

ولكن أن يعرف « بهلوانة » فشىء جديد على كل حال لم يكن يخطر لأحد منا على بال .

ولكن سروراً – على خلاف عادته – لم يكن يشاركنا فى مرحنا هذه المرة ، بل كان بادى الانقباض والجد يتابع نظره إلى الفتاة فى دورتها على الجالسين حتى انتهت منها وعادت إلى زميلها الذى كان يدير لها يد الصندوق ، وكان ظهره إلينا ، فربتت على ظهره . وأمسكت هى بإحدى يديه ، ورحلا عن المكان . وفيما هما يمران بنا تبينا وجه الرجل فإذا به أشوه وجه فى الوجود : وجه مسلوق متآكل بلا أنف ولا عينين ،

كله قروح وآثار حروق وجراح !

وما غاب عن أنظارنا فى زحام الشارع حتى ران علينا صمت عصبى وانقباض . ولعل هذا من أثر منظر ذلك الحطام البشرى المشوه تأخذ بيده فتاة ناضرة الحسن .

وأخرج «سرور» صندوق سجائره فجعل يدق واحدة منها على المنضدة بحركة عصبية ، ثم أشعلها وهو شارد النظر ونادى «الندل» فطلب منه فنجان قهوة آخر . والتفت إلينا وهو يعيد صندوق سجائره إلى جيبه ، وقال بلهجة جادة رزينة لم نسمعه يتكلم بها قط :

صدقونى يا إخوان أننا نعيش على هامش الحياة .

فضحكنا منه ومن جده هذا الذى لم نألفه منه ، وقلت له أنا :

– لماذا يا أخى ؟ ألأننا لا نعرف البهلوانات وآكلات النار والزجاج والمسامير ؟

فنظر إلى نظرة غريبة كنظرة رجل مجرب عرك الأيام إلى حدث غر ، نظرة إشفاق خلو من الغضب . ثم قال بهدوء :

– هذه الفتاة يا صديقى – لو تعلم – ليس الكثير منا نحن السادة المحترمين بأهل للنظر إليها مجرد النظر . . .

وجاءته القهوة وحسا قليلاً منها حسو المستأنى ، ثم اعتدل بوجهه إلينا ووضع ساقاً على ساق ، وبدأ يتكلم :

منذ عام أو نحو ذلك ندبت لعمل فى مدينة «ص . . .» من مدن الإقليم وأنا كما تعلمون لم أخرج من القاهرة طول عمرى إلا لقضاء أسابيع

من فصل الصيف فى الإسكندرية . فأنا لا أعرف أحداً فى هذا البلد الذى ألقيت نفسى فيه بحكم الوظيفة ، فركبنى الضيق ذات يوم وعفت مجلس زملائى فى العمل ، فقد كان ريتى الطابع ثقيلاً على قلبى ، فأخذت أضرب فى الشارع الذى يشرف على النيل ، حتى بلغت عند أطراف المدينة مقهى منعزلاً ، يبيع صاحبه فيه الشواء والشراب . فجلست وحيداً أحسو مشروبى ، وأرقب جماعة من أبناء البلد كانوا جلوساً غير بعيد منى ، لا يكفون عن التمايل والهمس ، ثم يضجون بالضحك فى صوت واحد دفعة واحدة . ولا يلبثون أن يعودوا بعدها إلى السكوت راضين عن أنفسهم بعد أن أدوا واجب (المجال) بهذه الأصوات الصاخبة !

ولكن هذا المشهد لم يلبث أن فقد جدته وطرافته فى عينى ، وكاد الملل يعود فيستولى على نفسى كرة أخرى حيث ملأت جو المكان تلك الموسيقى الآلية التى سمعتموها هذه الليلة من هذا (الجوق) الصغير . وعرضت نفس هذه الفتاة ألعابها هذه الساذجة ، ثم طافت بالزبائن كما طافت الليلة . ولكن فريق أبناء البلد اتخذوا منها نوطاً لدعابتهم الصاخبة اللاذعة ، وتمادوا فى التهكم عليها وعلى سراويلها وقميصها الإفرنجى البالى حتى كادت الفتاة تنصرف يائسة من المكان كله لولا أن لمحتنى فى ركنى الخافت الضوء ، ورأيت فى عينيها الكبيرتين نظرة تردد ، فقد أكون أنا أيضاً سمجاً قاسياً فأردها خائبة ، ولكنها حزمت رأيها آخر الأمر وسارت نحوى ، وأقرأتها بنظرى ، فإذا وجه غض لطيف وعينان عميقتان كأنهما

نجمان بل بحيرتان ، فقد كانتا مملوءتين بالدمع الحائر بين المقلة والجفن . .

وملأنى الإعجاب بقوامها المرهف كالسيف من أثر الرياضة التى تكسب بها رزقها ، وابتسمت لها وأشرت إلى مقعد أمامى ، فأزاحته وجلست صامتة تنقر على المنضدة بأصابعها الرشيقة اللدنة ، وقد وضعت الدف الفارغ فوق مقعد إلى جانبها ، ولما حضر الخادم بالشواء الذى طلبته لها أخذت جانباً من الكباب ووضعته على قطعة من الخبز ، وحملته إلى الرجل الذى يدير لها صندوق الموسيقى . وأسرت إليه بكلمات وربتت على كتفه فى رفق ، فاستدار الرجل إليها بوجهه ، فسقط عليه ضوء المصباح ، ورأيت الوجه الذى رأيتموه . . . والحق أن هذا الوجه أثار فى جسمى قشعريرة وكاد يقطع شهوتى للطعام ، ولكن الفتاة عندما عادت إلى ابتسمت لى ابتسامة شكران صافية صرفتنى عن هذا الاشمئزاز ، فسألتها :

– أهو أبوك ؟

فقالت بغير اكتراث كمن يكره الخوض فى هذا الحديث :

«نعم . . . هو أبى» .

ولكن بعد لقيمات أكلتها صامتة – وأنا منصرف عنها إلى طعامى لا أحدثها ولا أنظر إليها – لم تلبث أن أنست إلى وكأنما قد أنبها ضميرها على ملاقاة عطفى بالجفوة وكتمان الحق ، فرفعت رأسها إلى وقالت كالمتابعة ما كان من حديث «لقد كذبتك . . . فهو ليس أبى . . .» .

وكأنما سرها أننى لم أعلق على هذا القول ، ولم أسألها مزيداً من

الإيضاح ، فزاد شعورها بالأمن ، وانطلقت تروى لى قصتها :

« منذ سبع سنين كنت أعيش فى الإسكندرية مع أمى وزوجها – وهو معلم فى حرفتنا هذه – وكان فى حينا رجل صاحب مخبز يدعى « الحاج صبرى » وهو مشهور فى الحى كله بارتفاع الصوت وسرعة الغضب وطيبة القلب . . . ولم أكن فى بادئ الأمر أحبه ، فقد كانت بينى وبين ولده الوحيد سعد علاقة حب نبالغ فى إخفائها خوفاً من غضبه ، فهو أرمل ولم يتزوج ضنا بسعادة وحيده « سعد » أن تتعرض لمكاره زوج الأب ، ولكننى لم ألبث أن استشففت فى وجهه الصارم طيبة شديدة تخفيها عن الأنظار كثافة شاربه الضخم .

. . . وبقى حبنا سرًّا بيننا ظاهراً كما يكون الحب بين الصغار ، فقد كنت حينئذ فى الخامسة عشرة ، وكان هو يكبرنى بعام أو عامين على الأكثر . وتقدم لخطبتى قريب لزوج أمى ، فركبتنى الحيرة ، ولم أستطع الرفض كما لم أستطع مفاتحة سعد ، فقد يحسبنى أورطه فى الزواج منى ، والفارق بين طبقتينا كبير هائل !

وحدقت الفتاة فى كمّ يحدق المعلم فى تلميذه حين يلقى إليه بما يعلم أنه فوق زرع عقليته :

« إنكم معاشر (الأفندية) تحسبون الفرن والبهلوان أهل طبقة واحدة هى الطبقة الدنيا ، ولكن الحقيقة أنك كلما هبطت فى سلم المجتمع وجدت الحدود والفوارق بين الطبقات أشد وأصرم ، فالفران – أعنى صاحب الفرن – ينظر إلى الواحد من أهل مهنتنا نظرة دونها نظرة القائد

الكبير إلى جندى المراسلة الذى يكنس له البيت ! وكان سعد إلى هذا تلميذاً فى المدرسة الثانوية يعده أبوه للاندماج فى سلك «المطربشين» فكيف يرضى بزواجه من مثلى ؟

كتمت عنه أمر الخطبة وظللت ألقاه خلسة تحت ستار الظلام الذى فرضته الحرب ، والأيام تمر بنا هوناً حتى كانت الغارات على الإسكندرية . . . أتذكرها » ؟

فقلت : نعم أذكرها ولا شك ! . . .

فقالت « توالت الغارات الواحدة منها إثر الأخرى حتى كانت الغارة الكبرى . . . ونزل « الطوربيد » تلك الليلة فهز الإسكندرية كلها ، ونسف من باب سدرة ما نسف .

وفى باب سدرة كان المخبز الذى يملكه الحاج صبرى أبو سعد ، والذى كان يسكن طابقاً بناه فوقه . . . وهذا المخبز كانت مما عصفت به القذيفة المشئومة فى تلك الليلة .

وطلع الصباح فإذا حبيبى ميت ، وإذا أبوه فى مستشفى المدينة بين الموت والحياة . ظللت مسلوبة الرشاد يومين وقد كادت تذهب الصدمة المباغتة بعقلى فلم أصدق أن هذا الصبا الناضر قد ذهب ولن يعود ، ولكم تمنيت أن الله قد جمع بيننا وأن لى منه ولداً أذكره بمرآه ، وأراه فى تقاطيع وجهه الصغيرة ، ولكن هيهات . !

وذكرت أباه الذى أبقت عليه الأيام لتسقيه الحسرة على ولده الذى ما كان يعيش إلا من أجله ، فذهبت أسأل عنه فى المستشفى ؛ فهو البقية

الوحيدة الباقية لى من حبى المهيض الجناح ، فإذا به فقد البصر والأنف ، وأصبح وجهه قطعة مختلطة صماء من اللحم الأحمر الشائه . وكأن الأقدار كانت رحيمة به بعد كل هذا فسلبته الذاكرة والعقل .

وهو هذا الرجل الذى تراه الآن هناك : طفل أبله لا يعى ولا يفقه ، ولا يرى ولا يشم . وآلم من هذا على النفس — على نفسى أنا — أنه لا يتألم ؛ فهو إذ نسى ماضيه كله — لا إدراك لديه بسوء ما صار إليه . . . حطام بشر ليس غير .

وقد ظل المرحلة الأولى من طور النقاهة كالطفل الرضيع لا سيطرة له على نشاط أمعائه . ولم يكن له عائل ولا أقارب إلا أبناء خالة كالغرباء نزحوا معه حين نزح من الصعيد ، ونجحت تجارة الحبوب التى يعملون فيها وكانوا يوردون له الدقيق الذى يصنع منه الخبز . . . بيد أنهم رفضوا هذا الحطام ؛ كما تلفظ الأمواج حطام السفن الجبارة التى حطمتها العواصف ، فتلقيها على الشاطئ ، ولكن أهل الشاطئ يأبون على أشلائها مجرد الراحة على أرض الوطن ، فيقذفون بها إلى اليم الذى لا يرحم .

لفظوه وأنكروه ؛ فما كان يملك إلا ذاك المخبز الذى كان مقاما على أرض (حكر) ، والمخبز اليوم — كعقله وولده — ليس له وجود . . . فهو فقير معدوم ، وويل يا سيدى لعزيز القوم إذا ذل .

ولكننى أنا — أنا الحطام الذى بقى له رمق يحس بلواه ، ولم ترحمه الأيام كما رحمته بالنسيان — رأيتنى ملزمة برعايته ؛ أليس كان جارى فى قلب حبيبى الذى فقدته وفقده ؟ فهو قسيمى فى البلوى كما كان قسيمى فى

الفرح به والأمل فيه ؛ لهذا أخذت بيده لأرعاه ولأعوله ولأحفظ فيه عهد ابنه وحبيبي . . .

ولكن زوج أمي أبى على هذا وعده جنوناً ، وخطيبي أيضاً رأى فى هذا افتئاتاً على حقوقه ؛ فهو يريد زوجة ترعاه وتربح لتنفق معه أو تنفق عليه ، أما أن تكون له زوجة تعمل لتكفل هذه « الرمة » التى لا صلة لها بها – فى نظر الناس كافة – فأمر لم يسمع به أحد من قبل ، ولا يريد أحد أن يسمع به قط .

وكانت عندى قلادة من الذهب صغيرة بعتها واشتريت هذا الصندوق الموسيقى الذى تراه ، وهجرت الإسكندرية ومن فيها بعد أن دربت الحاج (صبرى) على إدارته ، وهى عمل سهل وقد خرج بالرعاية والعطف من سلطان بعض عاداته المرضية ، وتعلم شيئاً من ضبط النفس والنظام ، ولكنه لا يزال حيواناً أبله أو طفلاً بغير عقل ، ولا ماض ولا مستقبل » !

وصمتت الفتاة قليلاً كأنما لتشجيع شارد خواطرها ، ثم استطردت :

« ولكن السوق كاسدة ، وكثيراً ما لا تدر الموسيقى والألعاب التى أقوم بها أمام الجمهور ما يكفى إطعام فين ، ومع هذا فأنا أحمد الله أننا لم نحرم الطعام يوماً » .

ونظرت نظرة شكر خالص إلى الطعام الذى أمامها ، ثم نقلت إلىّ بصرها وقالت :

– اليوم مثلاً لم نجمع عشرة قروش من محلين قبل هذا المحل ،

وهنا . . . الحال كما ترى فى حين أن أجر المبيت وحده يقرب من هذا المبلغ . . . ويتكرر هذا أسبوعاً كاملا فى بعض الأحيان ، ولكن الله يرزقنا على الدوام .

وسكتت قليلاً ، وشعرت – وأنا أحدق فى ظلام الليل خلال النافذة – أن عينيها قد استقرتا على فى نظرة تساؤل معلقة كأنها تسأل وجهى أنْ ماذا بعد أن دعوتها إلى الطعام فأكلت ؟ ولم تحتمل نفسى هذا الظن الجارح ، فقمت كالملدوغ من مكانى ، ووضعت فى يدها خمسين قرشاً ، واندفعت نحو الخادم لأدفع ثمن ما استهلكت من طعام وشراب ، ورأيتها وأنا أتجه نحو الباب تنظر إلى ؛ ثم تهز كتفيها الرقيقتين تحت قميصها البالى ، كأنها تقول :

– أحسنت . . . أو أسأت . . . كل شىء سواء ، فإننا نعيش دائماً لنرى شمس الغد تتمخض عن نهار جديد كأمس الغابر .

وكان هذا آخر عهدى بها حتى رأيتها الليلة كما رأيتموها ، وصدقونى إذا قلت : إنه قد عرتنى الليلة للقائها هزة لم أعهدها فى حياتى ، هزة استخزاء من إنسانيتى ، إنسانيتى التى تضع هذه حيث تظنونها جميعاً ، وتضع مثلى بين السادة المرموقين الموصوفين بالشرف والكرامة .

إننى أشعر بالخزى لأننى أنتسب إلى إنسانية تجعل هذه تأكل النيران لتدخل السرور على مثلى كى تعيش ويعيش من ترعاه ، إنسانية تافهة تهدر القيم وتنكسها . . . !

وبصق سرور بصقة كبيرة كأنه قصد أن تكفي وجه الإنسانية بأكملها ، ولكنها لم تلوث إلا سروال واحد منا كان الكرى يداعب جفنيه . . !

القاهرة مايو ١٩٤٥

فهرس

صفحة

كلنا رفيق الأرض ٥
بين يدى هذه الرواية ٨
الفصل الأول : دبيب الحياة ١١
الفصل الثانى : الهزة الأولى ١٨
الفصل الثالث : سى عز ٢٢
الفصل الرابع : الهُبل المستباح ٢٥
الفصل الخامس : الزنديق ٣١
الفصل السادس : الكونسولتو ٣٨
الفصل السابع : يا بنت ستى ٤٥
الفصل الثامن : البرغوث ٥٠
الفصل التاسع : دقن السيسى ٥٧
الفصل العاشر : البساط أحمدى ٦٣
الفصل الحادى عشر : الأميرة النائمة ٧١
الفصل الثانى عشر : النافذة المفتوحة ٧٧
الفصل الثالث عشر : الطائر الصدى ٨٢
الفصل الرابع عشر : فى الشرك ٨٨

٢٠٧

صفحة

الفصل الخامس عشر	: ـــ الفل	٩٤
الفصل السادس عشر	: المأخوذة	١٠٠
الفصل السابع عشر	: أنت مهجتى	١٠٨
الفصل الثامن عشر	: الريح	١١٧
الفصل التاسع عشر	: مع السلامة	١٢٥
الفصل العشرون	: ومع السلامة	١٣٣
الفصل الحادى والعشرون	: ظمآن	١٤٠
الفصل الثانى والعشرون	: الجميز	١٤٦
الفصل الثالث والعشرون	: شىء واحد أكيد	١٥٢
المخمور	: (تراجيديا هامسة)	١٥٧
آكلة الثيران	: (البادة سوقية)	١٩٣

رقم الإيداع	١٩٧٩/٢٢٨٧
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٦٧٢ – X

١/٧٧/١١٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)